صفوة البيان في تفسير
وهدايات سورة الأعراف

إعداد : أ.د. طه عابدين طه

المبحث الأول

فضل سورة الأعراف وأسماؤها ومقاصدها

أولاً : فضلها :

أـ مما ورد في فضلها قراءة النبي ﷺ بها، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ: (قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرَّقها في ركعتين) . أخرجه النسائي وأحمد في المسند والترمذي ، والحاكم في المستدرك ، وصححه الألباني .

ب ـ وهي من السبع الطّوال التي جعلت في أوّل القرآن لطولها ، وهي سُور : البقرة ، وآل عمران ، والنّساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، وبراءة ، وقُدم المدني منها وهي سور : البقرة ، وآل عمران ، والنّساء ، والمائدة ، ثمّ ذكر المكي وهو : الأنعام ، والأعراف على ترتيب المصحف العثماني اعتباراً بأنّ سورة الأنعام أنزلت بمكّة بعد سورة الأعراف فهي أقرب إلى المدني من السّور الطّوال . وقد جاء عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الْأُوَلَ فَهُوَ حَبْرٌ) أخرجه أحمد في المسند والبزار والحاكم في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

ثانياً : أسماء السورة ووجه التسمية :

أ ـ أسماؤها :

اسمها التوقيفي : سورة الأعراف : وهذا الاسم هو الذي عرفت به هذه السورة من عهد الرسول ﷺ ، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ((قرأ رسول الله ﷺ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرّقها في ركعتين)) .

وعن عروة عن زيد بن ثابت : أنّه قال لمروان بن الحكم : (ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار السّور وقد رأيت رسول الله عليه الصّلاة والسلام يقرأ فيها بأطْول الطِوليين) . قال مروان قلت: (يا أبَا عبدِ اللَّه مَا أطولُ الطُولَيَنْ)، قال: (الأعراف). أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي . " وإنما سميت طول الطولين ، لأن أطول السور التي نزلت بمكة سورة الأنعام وسورة الأعراف ، والأعراف أطولهما " .

ب ـ معنى الأعراف: الاعراف في اللغة : جمع عُرف، وكل عال مرتفع . قال الزجاج : "الأعراف أعالي السور". وقال ابن جرير : " وكل مرتفع من الأعراف فهو (عُرف) ، وإنما قيل لعرف الديك : (عرف) ، لارتفاعه على ما سواه من جسده".

والأعراف هو السور بين الجنة والنار كما ذكر المفسرون . ونسب هذا القول إلى مجاهد والسدِّي .

ج ـ وجه التسمية : ووجه تسميتها بسورة الأعراف لأنه ذكر فيها لفظ الأعراف في قوله تعالى:﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ ﴾(الأعراف:٦) . ولم يُذكر في غيرها من سور القرآن ، ولأنّها ذُكر فيها شأن أهل الأعراف في الآخرة ، ولم يذكر في غيرها من السّور بهذا اللّفظ ، ولكنّه ذكر بلفظ (سُور) في قوله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ . والأعراف كما ذكر آنفاً هو السور بين الجنة والنار يحول بين أهلهما .

وقد اختلف المفسرون في أصحاب الأعراف من هم ؟ على أقوال عديدة :

قيل: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يستحقوا الجنة بالحسنات ولا النار بالسيئات فكانوا على الحجاب بين الجنة والنار .

وقال آخرون : هم قوم قتلوا في سبيل الله عصاة لآبائهم في الدنيا . وقيل : بل هم قوم صالحون فقهاء علماء . وقيل: هم أولاد الزنا، وقيل: هم الأنبياء ، وقال آخرون :

بل هم ملائكة ليسوا ببني آدم ، واعترض عليهم . فقيل : إنهم رجال ، فكيف تقولون ملائكة فقالوا إنهم ذكور وليسوا بإناث فلا يبعد إيقاع لفظ الرجل عليهم .كما وقع على الجن في قوله تعالى:﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾. إلى غير ذلك من الأقوال، والصواب في ذلك أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود ، وقد جاء في حديث مرفوع أخرجه ابن مردوية عن جابر بن عبد الله قال : سألت الرسول ﷺ عمن استوت حسناتهم وسيئاتهم فقال : (أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون).

قال ابن كثير في هذا الحديث :((وهذا حديث غريب من هذا الوجه)) . وعلى هذا الرأي أكثر المفسرين .

ولم يعُدّوا هذه السّورة في السور ذات الأسماء المتعدّدة . وأمّا ما في حديث زيد مِن أنّها تدعى طُولى الطَّولَيين فعلى إرادة الوصف دون التّلقيب . وذكر الفيروز ابادي في كتاب (بصائر ذوي التّمييز) أنّ هذه السّورة تسمى سورة الميقات لاشتمالها على ذكر ميقات موسى في قوله :(ولما جاء موسى لميقاتنا)(الأعراف:١٤٣) . وأنّها تسمى سورة الميثاق لاشتمالها على حديث الميثاق في قوله: (ألست بربكم قالوا بلى) (الأعراف: ١٧٢) .

ثالثاً : أغراض السورة ومقاصدها :

١. بدأت السورة ببيان عظمة الكتاب ، والوعد بتيسيره على النبي ﷺ ليبلغه ، وأمرت الأمة باتباعه ، وبينت سنة الله في المكذبين الضالين .

٢. النّهي عن اتّخاذ الشّركاء من دون الله . وإنذارُ المشركين عن سوء عاقبة الشّرك في الدّنيا والآخرة . ووصف مَا حَلّ بالمشركين والذين كذبّوا الرّسل : من سوء العذاب في الدّنيا ، وما سيحلّ بهم في الآخرة .

٣. نوَّهت بنعمة خلق الإنسانية من أب واحد ، وتمكينهم من الأرض وخيراتها ، ثم وضحت تكريم الله تعالى لهذا النوع الإنساني ، ثم كشفت عن خبث الشيطان ومكره ، وحذرت من كيده، والتلبّس ببقايا مكر الشّيطان من تسويله إياهم حرمَان أنفسهم الطيّبات ، ومن الوقوع فيما يزجّ بهم في العذاب في الآخرة .

٤. وصفت أهوال يوم الدين، مع التّذكير بالبعث وتقريب دليله ، وبينت جزاء المجرمين وكرامة للمتقين .

٥. أفاضت السور في الحديث عن قصص الأنبياء مع أقوامهم المشركين ، وما لاقَوه من عنادهم وأذاهم ، وأنذر بعدم الاغترار بإمهال الله النّاسَ قبل أن ينزل بهم العذاب ، إعذاراً لهم أن يقلعوا عن كفرهم وعنادهم ، فإنّ العذاب يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال . وقد استغرق هذا القصص أكثر من نصفها ، وأطال القول في قصّة موسى عليه السّلام مع فرعون ، وفي تصرّفات بني إسرائيل مع موسى عليه السّلام . وتخلّل قصّتَه بشارةُ الله ببعثة محمّد ﷺ وصفة أمّته وفضل دينه . وقد ساقت لنا السورة ما دار بين الأنبياء وأقوامهم ، وسجلت السورة جزاء المكذبين بأمر الله ، الخارجين عن دعوة رسلهم وهداياتهم .

٦. خلصت السورة إلى موعظة المشركين كيف بدلوا الحنيفية وتقلدوا الشرك ، وضربت لهم مثلا عمن أتاه الله الآيات فوسوس له الشيطان فانسلخ عن الهدى .

٧. ختمت السورة بإثبات التوحيد ، والتهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع ، من أحجار وأصنام اتخذوها شركاء مع الله ، وهو جل وعلا وحده الذي خلقهم ويعلم متقلبهم ومثواهم . ثمّ أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام والمسلمين بسعة الصّدر والمداومة على الدّعوة وحذرهم من مداخل الشّيطان بمراقبة الله بذكره سرّاً وجهراً والاقبال على عبادته .

رابعاً : مناسبات سورة الأعراف:

١ـ مناسبة السورة لما قبلها: مناسبة هذه السورة بما قبلها هو : أنه لما ذكر تعالى قوله :﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٥) ، واستطرد منه لما بعده إلى قوله آخر السورة : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ (الأنعام: ١٦٥) وذكر ابتلاءهم فيما آتاهم ؛ وذلك لا يكون إلا بالتكاليف الشرعيّة ذكر ما يكون به التكاليف وهو الكتاب الإلهي وذكر الأمر باتباعه كما أمر في قوله ﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ١ – ٣) .

٢ ـ مناسبة السورة لما بعدها :

لما قصَّ الله تعالى على نبيه ﷺ في سورة الأعراف أخبار الأمم ، وكيف كان الهوى سبب لضلالهم وشقائهم ، نبه الله خيار هذه الأمة لما فيه الحزم من ترك الأهواء جملة ، فقال تعالى :﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ١) .

٣ ـ مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها :

ابتدأت السورة بالكتاب واتباع ما جاء فيه وختمت به فقال تعالى في فاتحتها: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾وقال في خاتمتها : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٣ – ٢٠٤) .

خامساً : وقت نزول السورة وعدد آياتها :

وقت النزول : هذه السورة مكية بلا خلاف ، ثمّ قيل جميعُها مكّي ، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد والضحاك وغيرهم .

وقيل: نزل بعضها بالمدينة ، قال قتادة : آية : ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ (الأعراف:١٦٣) إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٧٢) نزلتْ بالمدينة . والراجح أنها كلها مكية ؛ لأن هذه الآيات مع ما قبلها وما بعدها جاءت في سياق واحد ضمن قصة بني إسرائيل .

عدد آياتها : وعدد آياتها مائتان وستّ في عَدّ أهل المدينة والكوفة ، ومائتان وخمس في عدّ أهل الشّام والبصرة .

المبحث الثاني

تفسير آيات سورة الأعراف

قال تعالى : ﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ١ – ٣) .

أولاً : المناسبة بين الآيات :

لما نوّه الله تعالى بالكتاب المنزّل إلى الرّسول ﷺ وبيّن أن حكمة إنزاله للإنذار والذّكرى أمر النّاس أن يتّبعوا ما أنزل .

وقيل: إن أمر الرسالة إنما يتم بالمرسِل وهو الله سبحانه وتعالى ، والمرسَل وهو الرسول، والمرسل إليه وهو الأمة ، فلما أمر في الآية الأولى الرسول بالتبليغ والإنذار مع قلب قوي ، وعزم صحيح أمر المرسل إليه وهم الأمة بمتابعة الرسول . فقال: {اتبعوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مّن رَّبّكُمْ }.

ثانياً : معاني الكلمات :

- المص : هذه أحد الحروف المقطعة ، والله أعلم بمراده بها.
- كتاب : أي هذا كتاب.
- حرج: ضيق .
- وذكرى : تذكرة بها يذكرون الله وما عنده وما لديه فيقبلون على طاعته.
- أولياء: رؤساؤهم في الشرك.
- ما تذكرون : أي تتعظون فترجعون إلى الحق.

ثالثاً : المعنى الاجمالي :

أشار الله تعالى بالحروف المقطعة في بداية هذه السورة إلى أن هذا القرآن مؤلف من مثل هذه الحروف التي تتكلمون بها وقد عجزتم عن تأليف مثله ، مما يتطلب إيمانكم به واتباعه.

ثم بين أن هذا القرآن هو كلامه ووحيه الذي أنزله على رسوله ، ونهاه أن يضيق صدره مِنَ الإِنْذَارِ بِهِ وابلاغه ، وَقَدْ أَنْزَلَهُ اللهُ إِلَيْه لِيُنْذِرَ بِهِ النَّاسَ كَافَّةً خاصة الكافرين من عواقب الشرك والضلال والعصيان ، وَلِيُذَكِّرَ بِهِ مَنْ كَتَبَ اللهُ لَهُمُ الهِدَايَةَ وَالإِيمَانَ .

ثم أمره أن يقول لِلنَّاسِ الذِينَ يُنْذِرُهُمْ : اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، من الهدى والنور والشفاء الذي جاء في الكتاب والسنة ، وذلك بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ؛ لأنه وحده هو الذِي لَهُ الحَقُّ فِي شَرْعِ الدِّينِ لَكُمْ ، وَفَرْضِ العِبَادَاتِ عَلَيْكُمْ وَتَحْلِيلِ مَا يَنْفَعُكُمْ ، وَتَحْرِيمِ مَا يَضُرُّكُمْ ، لأَنَّهُ العَلِيمُ بِمَا فِيهِ الفَائِدَةُ أَوِ الضَّرَرُ لَكُمْ ، وَلا تَتَّخِذُوا مِنَ غيره من الإنس والجن أَوْلِيَاءَ تُوَلُّونَهُمْ أُمُورَكُمْ ، وَتُطِيعُونَهُمْ فِيمَا يَرُومُونَ مِنْكُمْ مِنْ ضَلاَلِ التَّقَالِيدِ ، وَالابْتِدَاعِ فِي الدِّينِ ، لأنهم لا يأمرونهم إلا بالشرك والشر والفساد ، وَقَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ هُمُ الذِينَ يَتَذَكَّرُونَ وَيَتَّعِظُونَ ، ويرجعون إلى الحق .

رابعاً : الفوائد والهدايات :

١. فيها ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ بيان عظمة هذا الكتاب ، فالتنكير يفيد التعظيم ، فهو كتاب جليل ، منزل من عند الله العزيز الحكيم ، حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكما مفصلا .

٢. فيها إثبات العلو لله تعالى ، لأن النزول لا يكون إلا من أعلى .

٣. فيها إثبات الرسالة حيث خصه الله تعالى بإنزاله إليه (أنزل إليك) ، وهو أهل لهذا الاختصاص ، فهو أكرم الناس نفساً ، وأوسعهم خلقاً ، وأجملهم وأطهرهم قلباً وأعرقهم نسباً ، وهذا شيء خصه الله به فرفعه على جميع الخلق درجات لا تحصى ومراتب لا حد لها فتستقصي .

٤. فيها ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ مِّنۡهُ ﴾ النهي عن التحرج عن ابلاغ القرآن والإنذار به ، مخافة أن يكذب فيه أو يقصر في القيام بحقه ؛ لأنه كان يخاف تكذيب قومه له

وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له فأمّنه الله ونهاه عن المبالاة بهم ، فقوله تعالى:{حَرَجٌ} أي ضيق؛ أي لا يضيق صدرك بالإبلاغ؛ لأنه روي عنه عليه السلام أنه قال : "إني أخاف أن يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة" كما في رواية مسلم، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (الحجر: ٩٧) .

٥. فيها أن مهمة الرسول البلاغ ، فلا يضيق صدرك إن لم يؤمنوا به، فإنما عليك البلاغ ، ومثله قوله تعالى:{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ}(الكهف:٦)، وقال:{لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}(الشعراء:٣). وكذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ}(الحجر:٩٧) .

٦. فيها أن القرآن جاء ليهدم عقائد وتقاليد ؛ ويحارب أهواء ، ويعارض نظم وأوضاع ومجتمعات قائمة عليها ، ويبدد ظلمات . فالحرج في طريقه كثير، والمشقة في الإنذار به قائمة .. ويدرك ذلك من يصدع به لمواجهة تلك الجاهليات فهي جاءت لتهيئة الرسول ﷺ ومن يقومون بواجب الدعوة في كل زمان ومكان .

٧. فيها الاشادة بالقرآن الكريم، وهو مما تنشرح به الصدور؛ لأنه لو كان ظاهر الكتاب مخالفا لصريح المعقول لكان في الصدور أعظم حرج منه وضيق، والله تعالى رفع الحرج عن الصدور بكتابه، وكانت قبل إنزال الكتاب في أعظم الحرج والضيق فلما أنزل كتابه ارتفع به عنها ذلك الحرج وبقي الحرج والضيق على من لم يؤمن به كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(الأنعام:١٢٥).

٨. فيها الحث على انشراح الصدر بالقرآن، لأن النهي عن شيء يتطلب ضده، أي هو كتاب أنزل إليك فكن منشرح الصّدر به ، فهو كتاب أنزل لفائدة ، وقد حصلت الفائدة فلا يكن في صرك حرج إن كذّبوا .

٩. فيها النهي عن الشك في كتاب الله تعالى على المعنى الثاني { فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ} أي: شك واشتباه، وسمي الشك حرجاً؛ لأن الشاك ضيق الصدر ، كما أن المتيقن منشرح الصدر، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾(يونس:٩٤) ، فهو تنزيل من حكيم حميد {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } وأنه أصدق الكلام فلينشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تخش لائما ولا معارضا. قال الفراء : " تقديره هذا كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه أي شك والخطاب للرسول؛ والأمة هم المراد.

١٠. فيها النّهي للنبي ﷺ عن المبالاة بالمكذّبين بالقرآن ، والغمّ من صنيعهم ، وجعل النّهي في ظاهر اللّفظ متوجّهاً إلى الحرج للمبالغة في التّكليف ، باقتلاعه من أصله على طريقة قول العرب: (لاَ أرَيَنَّكَ ههنا) أي لا تحضر فأراك، وقولهم: (لا أعْرِفَنَّك تفعل كذا) أي لا تفعلْه فأعرّفك به ، نهياً بطريق الكناية .

١١. فيها أن النبي ﷺ بشر يصيبه ما يصيب غيره من الحزن والغضب والأسف ، كما قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾(هود : ١٢) .

١٢. فيها ما يفيد تقوية قلبه قبل القيام بواجب الإنذار الذي هو من الثقل بمكان لأنه إذا كان هذا الكتاب أنزله الله عليك ، فاعلم أن عناية الله معك ، وإذا علمت هذا فلا يكن في صدرك حرج ، لأن من كان الله حافظاً له وناصراً ، لم يخف

أحداً ، وإذا زال الخوف والضيق عن القلب ، فاشتغل بالإنذار والتبليغ والتذكير اشتغال الرجال الأبطال ، ولا تبال بأحد من أهل الزيغ والضلال والإبطال .

١٣. فيها أن القرآن أنزله الله لإنذار أهل الشرك والضلال وهو مصدر نذارة الرسول ﷺ بما حواه من الوعيد .

١٤. فيها أن القرآن ذكرى للمؤمنين ،فالإنذار للكافرين لعنادهم، والذكرى للمؤمنين؛ لأنهم المنتفعون به . وفي التصريح بمتعلّق الذّكرى دون متعلّق (تنذر) تنويها بشأن المؤمنين وتعريضاً بتحقِير الكافرين تجاه ذكر المؤمنين .

١٥. فيها وجوب اتباع ما جاء في القرآن والسنة من الهدى والنور ، وهو الذي أنزل عليه من ربه ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ، وذلك مَعْنَاهُ أَحِلُّوا حَلَالَهُ ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ ، وَامْتَثِلُوا أَمْرَهُ ، وَاجْتَنِبُوا نَهْيَهُ ، وَاسْتَبِيحُوا مُبَاحَهُ ، وَارْجُوا وَعْدَهُ ، وَخَافُوا وَعِيدَهُ ، وَاقْتَضُوا حُكْمَهُ ...

١٦. فيها التذكير بنعمة ما خصنا الله به ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم ، وقد خصصكم به دون غيركم فاشكروا هذه النعمة . فالكتاب منزل إليه ليؤمن به ولينذر ويذكر . وأما البشر فالكتاب منزل إليهم من ربهم ليؤمنوا به ويتبعوه ، ولا يتبعوا أمر أحد غيره .. والإسناد في كلتا الحالتين للاختصاص والتكريم والتحضيض والاستجاشة . فالذي ينزل له ربه كتاباً ، ويختاره لهذا الأمر ، ويتفضل عليه بهذا الخير جدير بأن يتذكر وأن يشكر؛ وأن يأخذ الأمر بقوة ولا يستحسر .

١٧. فيها ﴿ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ أن وصْفُ (الرب) هنا دون اسم الجلالة يقتضي الامتثال لأوامره، فهو:{مِنْ رَبِّكُمْ} الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه، كملت تربيتكم، وتمت عليكم النعمة، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها..

١٨. فيها ما يدل على عموم رسالة الإسلام فهي للناس كافة .

١٩. فيها الحث على تدبر القرآن الكريم ، لأن الاتباع يتطلب الفهم ، قال الحسن في هذه الآية يا ابن آدم أمرت باتباع القرآن فما من آية إلا وعليك أن تعلم فيما نزلت وماذا أريد بها حتى تتبعه وتعمل به .

٢٠. فيها النهي عن اتباع من يأمرون بغير ما جاء عن الله تعالى من أهواء تقود إلى الشرك والشر والفساد ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾.

٢١. فيها النهي عن اتباع من عاند الحق وخالفه ، وأن يتخذوا من عدل عن دين الله وليا، وإنما قال ﴿ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ ﴾ لأن كل من رضي مذهبا فأهل ذلك المذهب أولياؤه ، وكل من لا يتبع الوحي فإنما يتبع الباطل واتبع اولياء من دون الله .

٢٢. فيها النهي عن العدول عن حكم الله تعالى إلى حكم غيره .

٢٣. فيها دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص.

٢٤. فيها النهي أن يعبد معه غيره ، ويتخذ ولياً من دون الله من انس وجن وغيرهما .

٢٥. فيها أن المتذكر بالذكرى والمتعظ والعامل بها قليل ، كما قال تعالى : ﴿ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾، كقوله تعالى: (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)(يوسف:١٠٣) . وقوله تعالى : (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)(الأنعام:١١٦) وقوله: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)(يوسف: ١٠٦) .

٢٦. فيها بيان منزلة الذكرى وأهمية الانتفاع بها .

خامساً : الأسئلة والاشكالات :

السؤال الأول : فإن قيل: لم قيد هذه الذكرى بالمؤمنين ؟ قلنا : هو نظير قوله تعالى : {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}(البقرة:٢) والبحث العقلي فيه أن النفوس البشرية على قسمين : نفوس بليدة جاهلة ، بعيدة عن عالم الغيب ، غرقى في طلب اللذات الجسمانية ،

والشهوات الجسدانية ، ونفوس شريفة مشرقة بالأنوار الإلهية مستعدة بالحوادث الروحانية ، فبعثة الأنبياء والرسل في حق القسم الأول إنذار وتخويف ، فإنهم لما غرقوا في نوم الغفلة ورقدة الجهالة احتاجوا إلى موقظ يوقظهم وإلى منبه ينبههم . وأما في حق القسم الثاني : فتذكير وتنبيه ، وذلك لأن هذه النفوس بمقتضى جواهرها الأصلية مستعدة للانجذاب إلى عالم القدس والاتصال بالحضرة الصَّمدية ، إلا أنه ربما غشيها غواش من عالم الجسم ، فيعرض لها نوع ذهول وغفلة ، فإذا سمعت دعوة الأنبياء واتصل بها أنوار أرواح رسل الله تعالى تذكرت مركزها وأبصرت منشأها ، واشتاقت إلى ما حصل هنالك من الروح والراحة والريحان ، فثبت أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب على رسوله ليكون إنذاراً في حق طائفة ، وذكرى في حق طائفة أخرى ، والله أعلم .

السؤال الثاني: قيل في معنى الحرج: الضِّيقُ، والشَّكُّ ، والتَّبَرُّمُ ؛ فَإِنْ كَانَ هُوَ الشَّكُّ فَقَدْ أَنَارَ اللَّهُ فُؤَادَهُ بِالْيَقِينِ ، وَإِنْ كَانَ التَّبَرُّمُ فَقَدْ حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ الدِّينَ ، وَإِنْ كَانَ الضِّيقُ فَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْعُلُومِ ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ بِالْمَعَارِفِ ، وَذَلِكَ مِمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ ، وَخَفَّفَ عَلَيْهِ ثِقَلَ الْعِبَادَةِ حَتَّى جُعِلَتْ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِي الصَّلَاةِ فَكَانَ يَقُولُ: {أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ} فكيف يكون هذا، قيل الخطاب له والمراد بذلك أمته .

الدرس الثاني من تفسير سورة الأعراف

قال تعالى : ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ (الأعراف: ٤ – ٧) .

أولاً : المناسبة بين الآيات :

لما كان إنزال الكتاب على الرسول للإنذار والتذكير ، ولما كان الإنذار تعليماً مقروناً بالتخويف من عاقبة المخالفة فبدأ هنا بالتخويف من عذاب الدنيا ، ثم أعقبه بالتخويف من عذاب الآخرة . فبدأت الآيات من هنا في الشروع في إنذارهم بما جرى على الأمم الماضية بسبب إعراضهم عن اتباع الله تعالى وإصرارهم على اتباع دين أوليائهم ، وهي معطوفة على جملة : (ولا تتّبعوا) (الأعراف:٣) ؛ وهذا الخبر مستعمل في التّهديد .

ولما هددهم الله بالخبر عن حالتهم الدنيوية أعقبه بالخبر عن أحوالهم في الآخرة ؛ فقال تعالى: (فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) .

ولما كان السؤال يفهم خفاء المسؤول عنه على السائل بين أنه أعلم من المسؤولين عما سألهم فقال : (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ) أي مطلقاً ولا عن أحد من الخلق ؛ بل علمنا شامل لجميع الكليات والجزئيات ؛ لأن ذلك مقتضى العظمة لما لنا من صفات الكمال ، ومن لم يكن محيط العلم بأن يميز المطيع من العاصي لا يصح أن يكون إلهاً .

ثانياً : معاني الكلمات :

- وكم: أي كثيراً من القرى ، فهي تفيد الكثرة ، كما أن ربَّ للتقلين .

- قرية : والقرى هي مواضع اجتماع الناس . أي : العواصم والحواضر الجامعة لكل أسباب الحضارة .
- والإهلاك : الإفناء والاستئصال .
- بأسنا : البأس: الشدة والقوة والعذاب الشديد الذي يحصل به الألم وهو المراد .
- بياتا: أي ليلا ؛ ومنه البيت ، لأنه يبات فيه. يقال : بات يبيت بيتا وبياتا.
- قائلون : من القائلة ، وهي اسم للوقت المبتدئ من نصف النّهار المنتهي بالعصر ، وفعله : قال يقيل فهو قائل ، والمقيل الرّاحة في ذلك الوقت ، وقيل : الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن معها نوم . والمعنى جاءهم عذابنا وهم غافلون إما ليلا وإما نهارا.
- دعواهم : قال اللغويون الدعوى هاهنا بمعنى الدعاء والقول ، كقوله : (دعواهم فيها سبحانك اللّهمّ)(يونس:١٠) ، والدّعاء هنا لرفع العذاب أي الاستغاثة عند حلول البأس وظهور أسباب العذاب ، قال ابن الانباري وللدعوى في الكلام موضعان : أحدهما الإدعاء : ويجوز أن تكون الدّعوى بمعنى الادّعاء أي : انقطعت كلّ الدّعاوي التي كانوا يدعونها من تحقيق تعدّد الآلهة وأنّ دينهم حقّ ، فلم تبق لهم دعوى ، بل اعترفوا بأنّهم مبطلون ، فيكون الاستثناء منقطعاً لأنّ اعترافهم ليس بدعوى . والثاني القول والدعاء .
- أرسل إليهم : هم الأمم والأقوام.
- فلنقصن عليهم بعلم : القَصّ : الاخبار، يقال: قصّ عليه ، بمعنى أخبره ، والمعنى : فلنخبرنهم بأعمالهم متتبعين لها فلا نترك منها شيئاً..
- غائبين: الغائب ضدّ الحاضر، وهو هنا كناية عن الجاهل ، لأنّ الغيبة تستلزم الجهالة عرفاً ، أي الجهالة بأحوال المغيب عنه ، أي عنهم أيام كانوا يعملون.

ثالثاً : المعنى الاجمالي :

بين تعالى أن كثيرا من القرى أهلكناها لعصيانهم رسلها فيما جاءوها به من عند ربها، فكان هلاكها ونزول البأس والعذاب بها على ضربين ، فبعضهم حل بهم البأس حال كونهم بائتين ليلاً كقوم لوط، وجاء بعضهم وهو قائلون آمنون نهاراً كقوم شعيب .

فما كانت لهم حجة عند نزول العذاب إلا الاعتراف بالذنب وقولهم : (يا ويلنا إنا كنا ظالمين) ولكن هيهات إن ينفعهم الاعتراف بعد معاينة العذاب .

ثم بين تعالى أنه جامع الخلائق يوم القيامة لفصل القضاء ، وأنه يسأل الأمم الذين أرسل اللّه إليهم المرسلين عما أجابوا به رسلهم، فهل آمنوا بما جاءتهم به الرسل، وأطاعوهم فيما بلغوهم من التوحيد والعبادة والطاعة والانقياد، ويسأل الْمُرْسَلِينَ عن تبليغهم لرسالات ربهم وعما أجابتهم به أممهم ، وبين أنه يقصُّ على الجميع بعلمه كل ما كان منهم من ظاهر الأعمال وباطنها، ولا يستطيعون إخفاء شيء أبداً ، لأنه المحيط علمه بكل شيء ، وأعمال الخلق مكشوفة ظاهرة له عنهم حينما كانوا في الدنيا يعملون فكل أعمالهم كانت مكشوفة ظاهرة له ، وهو السميع البصير . ولم يكن سؤاله لهم أولاً إلا من باب إقامة الحجة وإظهار عدالته سبحانه وتعالى فيهم ، ولتوبيخ من يستحق التوبيخ منهم ، وهذا معنى قوله تعالى: {فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين} .

رابعاً : الفوائد والهدايات :

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾

١. فيها بيان شدة أخذ الله تعالى للقرى الظالمة ؛ لأنه لما كان المراد المبالغة في الإهلاك أسنده إلى القرية ، لأن تعليق فعل (أهلكنا) بالقرية دون أهلها لقصد الإحاطة

والشّمول ، والمراد أهلها ، فالسّامع يعلم أنّ المراد من القرية أهلها؛ لأنّ العبرة والموعظة إنّما هي بما حصل لأهل القرية، وبدليل وصفهم بالبيات والقيلولة .

٢. فيها ما يدل على كثرت أهل الباطل، وقلة اتعاظ الناس مما حل بغيرهم من الأمم.

٣. فيها أنه لا أحد يعصم من عذاب الله تعالى ، فقال : {أهلكناها} أي بما لنا من العظمة لظلمها باتباع من دون الله ، فلا تغتروا بأوليائكم من دونه وأنتم عالمون بأنهم لم ينفعوا من ضل من الأمم السالفة وقت إنزالنا بهم السطوة وإحلالنا بهم النقمة .

٤. فيها ما يدل على القوة والعظمة الربانية والكبرياء .

٥. فيها تعريض بغرور كفار قريش وغيرهم ، ممن غرتهم قوتهم وثروتهم وعزتهم .

٦. فيها بيان هوان الخلق على الله تعالى عند كفرهم ومعصيتهم .

٧. فيها أنه ليس لأحد نسبب مع الله ، إنما تجرى سننه على الخلق إكراماً وإهلاكاً حسب ما لهم من طاعة أو معصية .

٨. فيها الاعتبار بما حل بالأمم الظالمة من خراب ودمار.

﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾

٩. فيها بيان شدة وقوع العذاب في أوقات الغفلة والدعة ، لأن في تخصيص هذين الوقتين بالعذاب من بين أوقات اللّيل والنّهار ؛ لأنهما أوقات يطلب فيهما النّاس الرّاحة والدعة ويكونون في غفلة ، ونزول المكروه عند الغفلة والدعة أفظع وحكايته للسامعين أزجر وأردع عن الاغترار بأسباب الأمن والراحة ، ووصف الكل بوصفي البيات والقيلولة مع أن بعض المهلكين بمعزل منهما لا سيما القيلولة للإيذان بكمال غفلتهم وأمنهم .

١٠. فيها أن تقسيم القُرى المهلَكة : إلى مهلكة في اللّيل ، ومهلّكة في النّهار ، تهديد أهل مكّة ومن كفر حتّى يكونوا على وجل في كلّ وقت لا يدرون متى يحلّ بهم العذاب ، بحيث لا يأمنون في وقت مَّا .

١١. فيها أنه لا ينبغي للعاقل أن يأمن صفوة الليالي ورخاء الأيام ، خاصة عند مخالفة أمر الله .

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

١٢. فيها أنه لا تنفع التوبة عند معاينة الموت أو العذاب .

١٣. فيها أن كل مذنب يقع عليه عقاب ذنبه في الدنيا يندم ويتحسر ويعترف بظلمه وجرمه إذا علم أنه هو سبب العقاب .

١٤. فيها أن الإقرار بالذنب من أقوى الأدلة والبينات على الأخذ والعقوبة .

١٥. فيها أن مجرد الاعتراف بالظلم والإقرار بالذنب لا يكفي ، لأنه لا فائدة منه في الدنيا ولا في الدين حتى يرجع عنه العبد ويتوب منه ، خاصة فيما يتعلق بأمراض المجتمع عامة .

١٦. فيها (كنا ظالمين) أن تكذيب الرّسل والإعراض عن الآيات ، وصم الآذان عن الوعيد والوعظ من أعظم أنواع الظلم .

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

١٧. فيها تقرير عقيدة البعث والسؤال والحساب .

١٨. فيها أن من يكلف بعمل ينبغي أن يسأل عنه ، وهذا من تمام العدل والحكمة .

١٩. فيها صعوبة الموقف حيث تسأل الأمم والرسل عليهم السلام كذلك .

٢٠. فيها أن هذا السؤال متحقق حيث أكد خبره بلام القسم ونون التّوكيد لإزالة الشكّ في ذلك .

٢١. فيها أنه لما كان مقصد إرسال الرسل هي الإجابة ؛ فلا جرم أنهم يسألون عن ذلك المرسَل إليهم عن ما عملوا فيما بلغهم ، ولما كان المقصود الأهمّ من السّؤال هو الأمم لإقامة الحجّة عليهم في استحقاق العقاب، قُدّم ذكرهم على ذكر الرّسل.

٢٢. فيها أن الكفار يحاسبون ويسألون ، وإن لم توزن أعمالهم لقوله تعالى : {فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً} فمحاسبتهم لإظهار العدالة الإلهية لا لأن لهم أعمالاً صالحة يجزون بها والله أعلم .

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾

٢٣. فيها أن هذا السؤال للذين أرسل إليهم سؤال تقريع وتوبيخ لا سؤال استعلام في ذلك اليوم العظيم ،كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾(القصص:٦٥ – ٦٦). وسؤال المرسلين عن تبليغهم الرّسالة سؤال إرهاب لأممِهم ، لأنّهم إذا سمعوا شهادة رسلهم عليهم أيقنوا بأنّهم مسوقون إلى العذاب ،كما قال تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد)(النساء:٤١) فسؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وإفصاح ؛ أي عن جواب القوم لهم .

٢٤. فيها أن هذا السؤال من باب الإقرار على أنفسهم ، فالفاء في قوله : (فلنقصن عليهم) للتفريع والتّرتيب على قوله : (فلنسألن) أي لنسألنّهم ثمّ نخبرهم بتفصيل ما أجمله جوابهم ، أي فلنقصّنّ عليهم تفاصيل أحوالهم ، أي فعِلْمُنا غَنِي عن جوابهم ولكن السّؤال لغرض آخر .

٢٥. فيها أن الله تعالى شاهد على كل أعمال العباد {وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ} في كل الأحوال والأوقات ، يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون ، ويحيط علماً بما يسرون

وما يعلون كما قال تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ (النساء: ١٠٨) .

٢٦. فيها بيان لعظمة علم الله تعالى المحيط بكل شيء، فتنكيرُ علم في قوله: (بعلم) يدل على أنه علم عظيم ، فإنّ تنوين (عِلم) للتعظيم ، وكمالُ العلم إنّما يظهر في العلم بالأمور الكثيرة ، وزاد ذلك بياناً قولُه : (وما كنا غائبين) الذي هو بمعنى: لا يعزب عن علمنا شيء يغيب عنّا ونغيب عنه .

٢٧. فيها ما يحث على مراقبة الله تعالى العليم بكل شيء ، الشاهد على كل نفس بما كسبت .

خامساً : الأسئلة والإشكالات :

السؤال الأول : فان قيل إنما أتاها البأس قبل الإهلاك فكيف يقدم الهلاك في حرف الفاء هنا في قوله تعالى :{فَجَاءَهَا بَأْسُنَا} إشكال لأنّ الإهلاك قد تمّ فما معنى مجيء البأس حينئذ؟

هنالك عدة أجوبة لذلك : فالذي فسّر به الجمهور : أنّ فعل (أهلكناها) مستعمل في معنى إرادة الفعل فقيل: وكم من قرية أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا. كقوله: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}(النحل:٩٨) أي فإذا أردت القراءة .

وقال الفراء : الفاء بمعنى الواو ، فلا يلزم الترتيب .

وقيل : أن الهلاك والبأس يقعان معا ،كما تقول أعطيتني فأحسنت وليس الإحسان بعد الإعطاء ولا قبله وإنما وقعا معا قاله الفراء .

وقيل : المعنى وكم من قرية أهلكناها في حكمنا فجاءها بأسنا .

وحكى الفراء أيضا أنه إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت ؛ فيكون المعنى وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها؛ مثل: دنا فقرب، وقرب فدنا،

وشتمني فأساء ، وأساء فشتمني ؛ لأن الإساءة والشتم شيء واحد . وكذلك قوله : {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}(القمر:١) . المعنى – والله أعلم – انشق القمر فاقتربت الساعة ، والمعنى واحد.

وقيل : إنّ التّرتيب في فاء العطف قد يكون التّرتيبَ الذكريّ ، أي ترتيب الإخبار بشيء عن الإخبار بالمعطوف عليه. ففي الآية أخبر عن كيفيّة إهلاكهم بعد الخبر بالإهلاك ، وهذا التّرتيب هو في الغالب تفصيل بعد إجمال، فيكون من عطف المفصّل على المجمل ، ومثّل له بقوله تعالى: (فأزلهما الشّيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه)(البقرة:٣٦) .

السؤال الثاني : كيف نوفق بين سؤال الأمم هنا ونفيه في قوله تعالى: (ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون)(القصص:٧٨) ، وقوله (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) (الرحمن :٣٩) ؟

إثباتُ سؤال الأمم هنا لا ينافي نفيه هناك؛ لأنّ المسؤول عنه هنا هو التّبليغ والمنفيَّ في الآيتين الأخريين هو السّؤال لمعرفة تفاصيل ذنوبهم ، وهو الذي أريد هنا في قوله: (وما كنا غائبين).

وأن في الآخرة مواطن فيها يسألون ، وفي مواطن لا يسألون ، وهكذا سائر ما ورد مما ظاهره التعارض بأن أثبت تارة ونفى أخرى بالنسبة إلى يوم القيامة فإنه محمول على تعدد المواقف مع طول ذلك اليوم طولا عظيما .

قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٨ – ٩) .

أولاً : المناسبة بين الآيات :

عطف جملة: (والوزن يومئذٍ الحق) على جملة (فلنقصن) (الأعراف:٧) لما تضمّنه المعطوف عليها من العلم بحسنات النّاس وسيّئاتهم ، فلا جرم أن شعرت بأنّ مظهرَ ذلك العلم وأثَرَه هو الثّواب والعقاب ، وتفاوتُ درجات العاملين ودرَكاتهم تفاوتاً لا يُظلم العامل فيه مثقال ذرّة ، ولا يفوتُ ما يستحقّه إلاّ أن يتفضّل الله على أحدٍ برفع درجة أو مغفرة زلة لأجل سلامة قلب أو شفاعة أو نحو ذلك، ممّا الله أعلم به مِن عبادِه، فكأنّه قيل: فلنقصنّ عليهم بعلم ولنُجَازِيَنَّهم على أعمالهم جزاء لا غبن فيه على أحد .

ثانياً : معاني الكلمات :

- الوزن: حقيقته معادلة جسم بآخر لمعرفة ثقل أحد الجسمين أو كليهما في تعادلهما أو تفاوتهما في المقدار ، وإذ قد كان تساوي الجسمين الموزونين نادر الحصول ، جُعلت أجسام أخرى يُعرف بها مقدار التّفاوت ، فلابد من آلة توضع فيها الأشياء ، وتسمّى الميزان ولها أشكال مختلفة شكلاً واتساعاً .
- الحق: أي العدل.
- فمن ثقلت موازينه: أي بالحسنات فأولئك هم المفلحون بدخول الجنة.
- المفلحون : والفلاح حُصول الخير وإدراك المطلوب .
- الخاسرون: الخسران حقيقته ضد الرّبح ، وهو عدم تحصيل التّاجر على ما يستفضله من بيعه ، ويستعار لفقدان نفع ما يرجى منه النّفع .
- خسروا أنفسهم : غبنوا أنفسهم بدخولهم النار والاصطلاء بها أبداً.

- يظلمون: والظلم هنا ضدّ العدل: أي يظلمون الآيات فلا ينصفونها حقّها من الصدق وإنّما جعل تكذيبهم ظلما لأنّه تكذيب ما قامت الأدلّة على صدقه فتكذيبه ظلم للأدلّة بدحضها وعدم إعمالها .

ثالثاً : المعنى الاجمالي :

فقد أخبر تعالى أنه بعد سؤالهم وتعريفهم بأعمالهم ينصب الميزان بالعدل الذي لا جور فيه لتوزن أعمال العباد ، فمن ثقلت موازين حسناته أفلح بالنجاة من النار ودخول الجنة دار السلام ، ومن خفَّت لقلة حسناته وكثرة سيئاته خسر نفسه بإلقائه في جهنم ليخلد في عذاب أبدي ، وعلل تعالى لهذا الخسران في جهنم لعدم تصديقهم وانقيادهم لآيات الله تعالى كما يجب عليهم ذلك .

رابعاً : الفوائد والهدايات :

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ﴾

١. فيها أن الوزن في ذلك اليوم مقصور على الحق ، ولا يتجاوز الوزن في ذلك .

٢. فيها أن الموازين في الدنيا قد تكون بالحق ، وقد تكون بالباطل ، والأمر في الآخرة خلاف ذلك .

٣. فيها إثبات الوزن والميزان يوم القيامة ، بدون تكيف ، وأن كل إنسان له ميزان خاص به .

٤. فيها بيان كمال عدل الله الذي لا يظلم عنده أحد ، كما قال تعالى :﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء:٤٧) .

٥. فيها الحث على اتباع الكتاب ، وهو يتضمن الحث على اتباع الرسول والدلالة على التوحيد والقدرة على البعث .

٦. فيها أن أعمال العباد توزن بميزان رباني يوم القيامة يعين من خلاله مقادير مَا تستحقّه الأعمال من الثّواب والعقاب تعييناً لا إجحاف فيه .

٧. ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾

٨. فيها أن الأعمال الصالحة تثقل الميزان فهي غالبة ووافرة .

٩. فيها أن الأعمال السيئة لا قيمة لها ولا وزن وإن كثرت . روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال : إنما ثقل ميزان من ثقل ميزانه لأنه وضع فيه الحق، وحق لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلا. وإنما خف ميزان من خف ميزانه لأنه وضع فيه الباطل ، وحق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفا.

١٠. فيها أن الفلاح والخسران مبنيان على الكسب في الدنيا فمن كسب خيراً نجا، ومن كسب شراً هلك.

١١. فيها ما يفيد عظمة ما يناله أهل الإيمان في الآخرة ، حيث يتحقق لهم الفلاح الذي هو الظفر بكل مطلوب ، والنجاة من كل مرهوب .

١٢. فيها بيان حال المؤمنين الصّالحين المستكثرون من الصالحات، وحال المكذّبين المشركين عديمي الصّالحات، ثم جاء الحديث بعد ذلك في من استوت حسناتهم وسيئاتهم وهم أهل الأعراف . قال حذيفة وعبدالله بن مسعود وغيرهما من الصحابة يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف فمن رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار ، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف ، وهذه الموازنة تكون بعد قصاص واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسناته فإذا بقي شيء منها وزن هو وسيئاته .

١٣. فيها أن أعظم الخسران هو خسران النفس ، وذلك يكون بعدم الفوز برضوان الله تعالى ، وعدم أخذه بأسباب النجاة .

١٤. فيها أن الله يكرم العبد أو يهينه على حسب ما قدم وأخر ، والناس في الآخرة إما رابح وإما خاسر .

١٥. فيها التشجيع على الطاعة وعدم الاستهانة بالحسنات ، والتشجيع على ترك السيئات ، وعدم الاستهانة بالصغائر .

١٦. فيها أن جزاء الأعمال لا يبين إلا في الآخرة بعد أن توزن .

١٧. فيها أن التكذيب بآيات الله وعدم الانقياد لها من أعظم أنواع الظلم الذي يستحق به العبد العذاب يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

١٨. فيها أن الخسران الكامل مرتبط بالموت على التكذيب بآيات الله ، يفيد ذلك فعل المضارعة الذي يدل على الاستمرارية .

قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾(الأعراف: ١٠ – ١١) .

أولاً : المناسبة بين الآيات :

لما أمر الله تعالى الخلق باتباع ما أنزل إليهم ونهاهم عن اتباع غيره وبين لهم وخامة عاقبته بالإهلاك في الدنيا ، والعذاب المخلد في الآخرة ، ذكرهم ما أفاض عليهم من فنون النعم الموجبة للشكر ترغيبا في الامتثال بالأمر والنهي ، وتحذيراً من سلبها إثر ذلك الترهيب . وهي معطوفة على جملة (ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون)(الأعراف:٣) حيث ذكرهم فيها بأنه ولي الخلق، لأنّه خالقهم على وجه الأرض ، وخالق ما به عيشهم الذي به بقاء وجودهم إلى أجل معلوم ، ووبخهم على قلّة شكرهم ، فإنّ النّفوس التي لا يزجُرها التّهديد قد تنفعها الذكريات الصّالحة .

ولما ذكر سبحانه ما منحهم به من التمكين والمعاش ذكّرهم بما كانوا عليه قبل هذا التمكين من العدم تذكيراً بالنعم في سياق دال على البعث الذي فرغ من تقريره ، وعلى ما خص به اباهم آدم عليه السلام من التمكين في الجنة بالخلق والتصوير وإفاضة روح الحياة وروح العلم وأمر أهل سماواته بالسجود له ، والغضب على من عاداه وطرده . وهي معطوفة على جملة: (ولقد مكناكم في الأرض) تذكيراً بنعمة إيجاد النّوع ، وهي نعمة عناية، لأنّ الوجود أشرف من العدم ، بقطع النّظر عما قد يعرض للموجود من الأكدار والمتاعب ، وبنعمة تفضيله على النّوع بأنْ أمَر الملائكة بالسّجود لأصله ، وأُدمج في هذا الامتنان تنبيهٌ وإيقاظ إلى عداوة الشّيطان لنوع الإنسان من القِدم ، ليكون ذلك تمهيداً للتّحذير من وساوسه وتضليله ، وإغراء بالإقلاع عمّا أوقع فيه النّاس من الشّرك والضّلالة ، وهو غرض السورة ، وذلك عند قوله تعالى: (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) (الأعراف:٢٧) ومَا تلاه من الآيات ، فلذلك كان هذا بمنزلة الاستدلال وُسِّط في خلال الموعظة .

وتأخيره لذكره بما فائضه على آدم عليه السلام من نعمة سارية إلى ذريته موجبة لشكرهم عن تذكير ما وقع قبله من نعمة التمكين في الأرض ؛ إما لأنها فائضة على المخاطبين بالذات وهذه بالواسطة ، وإما للإيذان بأن كلا منها نعمة مستقلة مستوجبة للشكر على حيالها ، فإن رعاية الترتيب الوقوعي ربما تؤدي إلى توهم عد الكل نعمة واحدة .

ولما كان الدين الذي بينه وأمر باتباعه هو دين الفطرة الموصل لكل كمال ، وكان افتتان الناس بالأرض وزينتها وأمر المعاش من أسباب إفساد الفطرة ، وكذلك ما يزينه الشيطان للناس من الباطل ذكر سبحانه الناس في هذه الآية بنعمه عليهم في التمكين في الأرض ، وخلق أنواع المعاش فيها ليشكروه وتكون سبباً لقربهم ، وليس سبباً لغفلتهم ، وحذرهم من عدوهم الذي كان سبباً لشقائهم ليتقوه ولا يتخذونه وحزبه

أولياء من دون الله في سياق طويل ينتهي في الآية الثالثة والثلاثون ثم يعود الكلام إلى ذكر دعوة الرسل للأمم وجزاء من آمن واتبعهم ومن كفر بهم وعصاهم .

ثانياً : معاني الكلمات :

- مكناكم : والتّمكين جعل الشّيء في مكانه وهو يطلق على الإقدار على التّصرف.
- معايش : جمع معيشة ، وهي ما يعيش به الحيّ من الطّعام والشّراب ، مشتقّة من العيش وهو الحياة .
- خلقناكم : والخلق الإيجاد وإبراز الشّيء إلى الوجود ، وهذا الإطلاق هو المراد منه عند إسناده إلى الله تعالى أو وصف الله به .
- صورناكم : والتّصوير جعل الشّيء صورة ، والصّورة الشّكل الذي يشكّل به الجسم كما يشكّل الطين بصورة نوع من الأنواع .
- فسجدوا : أي سجود تحية لآدم عليه السلام.
- إبليس: أبو الشياطين من الجن ، وهو الشيطان الرجيم.

ثالثاً : المعنى الاجمالي :

بيان الله تعالى منته على عباده بما يستوجب شكره بالإيمان والطاعة ، حيث جعلهم متمكنين في الحياة على الأرض يستقرون عليها ، ويتصرفون فيها ، من البناء عليها وحرثها، ووجوه الانتفاع بها ، وجعل لهم فيها معايش وأرزاقاً مما يخرج من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات، فإنه هو الذي هيأها، وسخر أسبابها . يطلبونها فيها ويحصلون عليها وعليها قامت حياتهم ، وكان المفروض أن يشكروا الله بما أنعم عليهم من أصناف النعم ، ولكن الذي حصل هو عدم الشكر من أكثرهم .

ثم ذكر نعماً أخرى موجبة لشكره تعالى حيث خلقهم من العدم ، وصورهم في أحسن صورة وأكمل تقويم ، وكرم أباهم آدم حيث علمه ما به تكمل صورته الباطنة، أسماء كل شيء ، ثم أمر الملائكة بالسجود له تحية له وإكراماً وإظهارا لفضله، فسارعوا بامتثال أمر ربهم إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين ، تكبرا عليه وإعجابا بنفسه.

رابعاً : الفوائد والهدايات :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

١. فيها الامتنان بجعل الأرض للعباد قرارا ومهادا .

٢. فيها أنه ما من بقعة منها إلا وهي صالحة لانتفاعهم بها ولو بالاعتبار .

٣. فيها أن الله جعل لنا قدرة مكنًّا بها على أمور الأرض وخوّلنا التّصرف في مخلوقاتها ، وذلك بما أودع الله في البشر من قوّة العقل والتفكير التي أهلته لسيادة هذا العالم والتّغلّب على مصاعبه .

٤. فيها أن الله استخلف الإنسان في هذه الأرض ، ومكنه بكل أدوات الاستخلاف التي تحقق له السعادة والعيش الكريم .

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

٥. فيها امتنان ثاني بما هيأ الله لعباده في الأرض من أسباب المعيشة التي ما يتعيش به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة.

٦. فيها الامتنان بكثرة أنواع النعم التي يكون بها المعاش من نبات شتى ، وأنعام ، وطير وسمك ومياه صافية ، وأشربة مختلفة الطعوم والروائح وغير ذلك .

٧. فيها أن النعم الكثيرة تقتضي شكراً كثيراً ، ولكن كان الشكور من العباد قليل وهو الواقع ، فشكركم قليل لا يناسب كثرتها وحسنها وتعدد منافعها .

٨. فيها الحث على طلب المعاش الذي بثه الله في الأرض ، وجعله للخلق .

٩. فيها أن الشكر يكون بتذكر نعم الله ، وتسخيرها في طاعته ، والاستمرار على ذلك .

١٠. فيها وجوب شكر المنعم على نعمه الكثيرة التي لا تحصى ، والشكر يكون بالإيمان والطاعة لله ورسوله.

١١. فيها سعة رحمة الله بعباده حيث استمرت عليهم نعمه مع قلة شكرهم .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾

١٢. فيها الامتنان بنعمة الخلق المستوجبة لعبوديته جل وعلا ، وليس هنالك خالق للخلق سواه .

١٣. فيها أن الله تعالى هو المتفرد للخلق ، والخلق نعمة عظيمة تستوجب الشكر .

١٤. فيها ما يفيد فخامة خلق الإنسان ، وحسن تصويره .

١٥. فيها التذكير بنعمة تصور الإنسان في أحسن صورة ، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحشر:٢٤) .

١٦. فيها ما يفيد أن التصور يكون بعد الخلق بمراحل حيث عطفت جملة (صورناكم) بحرف (ثمّ) الدّالة على تراخي رتبة التّصوير عن رتبة الخلق ؛ لأنّ التّصوير حالة كمال في الخلق ، سواء كان التّصوير مقارناً للخلق كما في خلق آدم ، أم كان بعد الخلق بمدّة، كما في تصوير الأجنّة من عظام ولحم وعصب وعروق ومشاعر كقوله تعالى(فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً)(المؤمنون: ١٤) .

١٧. فيها الامتنان بتكريم الإنسان حيث اسجد لأبيهم آدم ملائكته .

١٨. فيها إثبات الملائكة ، وأنهم يعقلون ، ويأمرون ، ويطيعون ولا يعصون .

١٩. فيها بيان مدى تمرد إبليس على الله من خلال الاخبار عن نفي سجوده بجعْلِه من غيرِ السّاجدين : إشارة إلى أنّه انتفى عنه السّجود انتفاء شديداً ، لأنّ قولك لم يكن فلان من المهتدين يفيد من النّفي أشدّ ممّا يفيده قولك لم يكن مُهتدياً ، ولأن نفي الكون يقتضي نفي الأهلية والاستعداد فهو أبلغ في الذم من أن يقال لم يسجد .

٢٠. فيها بيان منزلة الطائفة الساجدة ، وقبح التمرد على عبودية الله تعالى ، ومنزلة السجود ، وأنه من العبادات العظيمة ، ولهذا كان العبد فيه أقرب ما يكون إلى الله تعالى .

٢١. فيها ما يدل على أنهم أمروا بالسجود بعد خلقه عليه الصلاة والسلام وتسويته ونفخ الروح فيه ، وهو غير الأمر المعلق الوارد في قوله تعالى: (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) وهو المراد بما حكى بقوله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) الآية في سورة البقرة وسورة بني إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من غير تعرض لوقته ، وحرف ثم ههنا تقتضي تراخيه عن التصوير من غير تعرض لبيان ما جرى بينهما من الأمور .

٢٢. فيها ما يفيد أن إبليس لمن يكن من الملائكة ، وذلك من خلال قوله تعالى :﴿ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

٢٣. فيها إثبات القول لله تبارك وتعالى .

٢٤. فيها ما يدل على فضل آدم عليه السلام وشرفه ، حيث خصه بالذكر ، وأمر الملائكة بالسجود له .

٢٥.فيها أن التكريم لآدم كان هو تكريم لجنس الإنسان ، ولهذا جاء الامتنان للجميع .

الدرس الثالث من تفسير سورة الأعراف

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢).

أولاً : المناسبة بين الآيات :

لما كان مخالف الملك في محل العقاب ، تشوف السامع إلى خبره فسأله تبارك وتعالى إنكاراً عليه ، وتوبيخاً له ، واظهاراً لكفره الذي كان يخفيه بما يبدي من جوابه ليعلم الخلق سبب طرده ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ .

ثانياً : معاني الكلمات :

- منعك : أي صدّك وكفّك عن السجود .
- ألا تسجد : لا زائدة تفيد التوكيد والتحقيق ، والمراد ما منعك أن تسجد . أو أن تحقّق السجود وتلزمه نفسك .

ثالثاً : المعنى الاجمالي :

لما امتنع إبليس عن السجود سأله ربه تعالى عن سبب عدم سجوده وطاعة أمره فأجاب بأنه أشرف من الذي أمر أن يسجد له ، وهو آدم عليه السلام ، وأنه مخلوق من نار ، وهو مخلوق من طين فكيف يسجد له.

رابعاً : الفوائد والهدايات :

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾

١. فيها ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ما يدل على أن الأمر يقتضي الوجوب بمطلقه من غير قرينة ، ويدلّ على الفور ؛ لأن الذم علق على ترك الأمر المطلق الذي هو قوله عز وجل للملائكة :{اسْجُدُوا لِآدَمَ} ، ولذلك وقع العقاب على ترك المبادرة بالسجود في الحال ، ولو لم يدلّ على الوجوب ولا على الفور لم يستوجب الذمّ في الحال ولا مطلقاً.

٢. فيها ما يشير إلى عظمة الأمر الرباني الذي ينبغي أن يقف معه العبد موقف الإجلال والسمع والطاعة ، فإن الذي أمره بالسجود هو الرب الذي تجب طاعته سواء كان المسجود له فاضلاً أو مفضولاً ، وهو ما لم يتنبه إليه اللعين .

٣. فيها قبح الامتناع والاعتراض على أمر الله ، وكل من يفعل ذلك ، ويعترض على كلام الله الذي لا يوافق هواه ، فإن قدوته إبليس عليه لعنة الله والناس أجمعين ، فالمؤمن يستجيب لأمر الله علم الحكمة أو لم يعلم .

٤. فيها ما يشير إلى ما في السجود من وجه عظيم من أوجه الخضوع لله رب العالمين .

٥. فيها ما يشير لكمال عدله جل وعلا ، فلم يعاقبه إلا بعد أن استنطقه كفره ، وقبيح ذنبه .

٦. فيها دليل على الحوار ، وإثبات صفة الكلام لله تعالى .

٧. فيها أن الإنسان لا ينبغي أن يخالف أمر الله إلا بعذر ، وإلا كان فيه شبه بإبليس .

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

٨. فيها ذم الكبر وهو أول ذنب عصي به الله ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ ، وأن إبليس هو أول من تكبر على الله تعالى .

٩. فيها أن داء الكبر دائماً يمنع من الانقياد للحق ، وهو من وراء كل مجادل في نصوص الوحي بالباطل ، كما قال تعالى : (إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) .

١٠. فيها ما يدل على ذم تزكية النفس والتفاخر على الغير ، فقوله تعالى : {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ} أي منعني من السجود فضلي عليه .

١١. فيها ما يدل على جهل إبليس بربه إذ يستلزم من قوله نسبة الجور إلى ربه ، أو عدم العلم بالحق {أنا خير} أي فلا يليق لي السجود لمن هو دوني ، ولا أمري بذلك لأنه مناف للحكمة . وكان ينبغي أن يعلم أن الله لما أمره بالسجود لآدم عَلِم استحقاق آدمَ ذلك .

١٢. فيها سوء تفكير إبليس حيث رأى الفضل كله باعتبار العنصر ، وغفل عما خص الله به آدم ، من خلقه بيده (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) أي بغير واسطة ، والنفخ فيه من روحه (ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) ، وباعتبار الغاية وخصه به من العلم ؛ ولذلك أمر الملائكة بالسجود له لما بين لهم أنه اعلم منهم وأن له خواص ليست لغيره . وقالوا : لا يدل من كانت مادته أفضل على أنه تكون صورته أفضل إذ الفضيلة عطية من الله تعالى ، ألا تراه يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر وأن الحبشيّ المؤمن خير من القرشيّ الكافر.

١٣. فيها بيان قبح القول على الله بدون علم ، فهو قد ظن أن النار أشرف من الطين وهذا لا يسلم له فيه . قال العلماء : أخطأ إبليس من حيث فضل النار على الطين وهما في درجة واحدة من حيث هما جماد مخلوق ، قال محمد بن جرير الطبري " ظن الخبيث ورأى أن النار خير من الطين ولم يعلم أن الفضل لما جعل الله له الفضل ، وقد فضل الله الطين على النار ؛ ولأن في طبع النار طيشا وخفة وإحراقا ، وفي الطين رزانة وحلم وتواضع وأمانة فيجوز أن يكون خيرا من النار " .

١٤. فيها{أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ} ما يدل على نقص إبليس الخبيث حيث برهن على نقصه بإعجابه بنفسه وتكبره ، والقول على اللّه بلا علم . وأي نقص أعظم من هذا؟"

١٥. فيها{خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} ما يدل على جهل إبليس من جهتين حيث فضل مادة النار على مادة الطين والتراب بدون دليل وعلم .

والثاني: قابل أمر الله بالقياس، قال ابن عباس: كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس فعصى ربه ، وهو أول من قاس برأيه. والقياس في مخالفة النص مردود.

١٦. فيها بيان قبح الاعتراض على أمر الله وعدم الاستجابة لأمره ، وبهذا الاعتراض كفر إبليس إذ ليس كفره كفر جحود .

١٧. فيها دليل الكون وأن الشياطين أجسام كائنة ولعل إضافة خلق الإنسان إلى الطين والشيطان إلى النار باعتبار الجزء الغالب .

١٨. فيها ما يدل على ذم القياس مع النص ، والقياس إذا عارض النص، فإنه قياس باطل، لأن المقصود بالقياس، أن يكون الحكم الذي لم يأت فيه نص، يقارب الأمور المنصوص عليها، ويكون تابعا لها.

١٩. فيها أن من قاس الدين برأيه قرنه مع إبليس. قال ابن سيرين : وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

٢٠. فيها أن القياس الذي يعارض النص ، ويلزم من اعتباره إلغاءُ النصوص، من أشنع الأقيسة .

٢١. فيها ذم التأويل ، وقد قيل إن طرد إبليس ولعنه إنما كان بسبب التأويل فإنه عارض النص بالقياس ، وقدمه عليه وتأول لنفسه أن هذا القياس العقلي مقدم على نص الأمر بالسجود فإنه قال (أنا خير منه الأعراف) . إذا تأملت عامة شبه المتأولين التي تأولوا لأجلها النصوص وعطلوها رأيتها من جنس شبهته والقائل إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل من هاهنا اشتق هذه القاعدة وجعلها أصلا لرد نصوص الوحي التي يزعم أن العقل يخالفها كما زعم إمامه أن دليل العقل يخالف نص الأمر بالسجود حين قدمه عليه ، وعرضت لعدو الله هذه الشبهة من ناحية كبره الذي منعه من الانقياد المحض لنص الوحي .

٢٢. فيها إثبات عالم الملائكة والجن والأنس وكلهم خلق لله تعالى .

٢٣. فيها ما يدل على أن إبليس من الجن ، حيث خلق من مارج من نار .

٢٤. فيها أن التسليم لأمر الله ولو لم يعلم العبد الحكمة من صفات المتقين .

٢٥. فيها ما يدعو إلى علاج الكبر من جهتين أن خلقه من طين والكبر سبب لطرد إبليس ، ويكفي في ذمه والحسد نسبتهما وقدوة الخلق فيهما إبليس .

خامساً : الأسئلة والإشكالات :

السؤال الأول: كيف نوفق بين هذه الآية وما جاء في سورة الجن: ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: ٣٢)، وفي سورة ص :﴿ قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ (ص: ٧٥) ؟ قال أبو السعود: " اختلاف العبارات عند الحكاية دل على أن اللعين قد أدمج في معصية واحدة ثلاث معاصٍ : مخالفة الأمر ، ومفارقة الجماعة ، والإباء عن الانتظام في سلك أولئك المقربين ، والاستكبار مع تحقير آدم عليه السلام ، وقد وبخ حينئذ على كل واحدة منها ؛ لكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اكتفاء بما ذكر في موطن آخر ، وإشعار بأن كل واحدة منها كافية في التوبيخ .

قال تعالى :﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٣ — ١٥) .

أولاً : المناسبة بين الآيات :

ولما كان هذا امراً ظاهراً لا يحتاج إلى رد ، وكان مجرد التكبر على الله كفراً على أيّ وجه كان ، أعرض عن جوابه وأخبر بطره {فاهبط منها} مضمراً للدار التي كان فيها وهي الجنة فإنها لا تقبل عاصياً وعبر بالهبوط الذي معناه النزول والحدور والانحطاط والنقصان والوقوع في شيء منه .

لما كوّن الله فيه الصّغار والحقارة بعد عزّة الملَكية وشرفها انقلبت مرامي همّته إلى التّعلق بالسّفاسف (إذَا ما لم تكن إبل فمَعْزَى) فسأل النَّظِرة بطول الحياة إلى يوم البعث لما علم أن الحسد قد أبعده ونزل به عن ساحة الرضى وأقعده تمادى فيه فسأل ما يتسبب به إلى إنزال المحسودين عن درجاتهم العالية .

ثانياً : معاني الكلمات :

- فاهبط منها: والهبوط الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه ، أو من مكانة ومنزلة إلى ما دونها، فهو حسي ومعنوي، أي فاخرج منها، واختلفوا في هذه الكناية قيل أراد بها فاهبط من الجنة، وقيل أراد بها من الدرجة التي جعله الله عليها من قبل ، ولا مانع من كلاهما .
- تتكبر : من الكبر ، وهو أن يجعل نفسه أكبر مما هي عليه .
- الصَّاغِرِينَ : أي من الأذلين المهانين .

ثالثاً : المعنى الاجمالي :

لما أظهر حسده وكبره أمره الله تعالى أن يهبط من الجنة ذليلاً صاغراً ، فهي ليست للمتكبرين ، ولما وقع إبليس في سوء عمله طلب من الله تعالى أن يمهله إلى يوم البعث ليتمكن من إفساد أكبر عدد من بني آدم انتقاماً منهم ؛ إذ كان آدم هو السبب في طرده من الرحمة ، فبين له أنه من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم .

رابعاً : الفوائد والهدايات :

٢٦. فيها {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا} على أن السيئات تحط من قدر صاحبها ، فإنه مشعر بالنزول من علوّ إلى أسفل حسياً ومعنوياً .

٢٧. فيها أن التواضع سمت عباد الله الصالحين ، وليس من شأن عباد الرحمن التكبر ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ ﴾ ، فهي تحث على التواضع .

٢٨. فيها أن الجنة مكان الطيبين الطاهرين المتواضعين الخاشعين والمطيعين ، فلا تليق بأخبث خلق اللّه وأشرهم ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ لأن أهلها الملائكة المتواضعون ، وأن التكبر لا يليق بأهل الجنة. ولهذا قال النبي ﷺ : (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل كبر) . رواه مسلم وغيره.

٢٩. فيها أن الله تعالى إنما طرد إبليس وأهبطه لتكبره لا لمجرد عصيانه .

٣٠. فيها أن عاقبة الكبر الإهانة والصغار والإذلال ، وأن كل من أظهر الاستكبار ألبس الصغار وجوزي بضد مراده (فاخرج إنك من الصاغرين) ممن أهانه الله لتكبره ، فإن من تواضع لله رفعه ومن تكبر وضعه الله .

٣١. فيها {فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ} أن من عصى مولاه فهو ذليل .

٣٢. فيها الشدة والغلظة في مخاطبة المتكبرين المعاندين .

٣٣. فيها أن من يهن الله ويذله ويبعده فما له من مكرم .

٣٤. فيها أن الإنسان يعامل بنقيض قصده الفاسد .

٣٥. فيها أن إبليس سأل النظرة والإمهال إلى يوم البعث والحساب ، ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم. وهو قول ابن عباس .

٣٦. فيها أن الله أمهله وأنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين ؛ فأبى الله ذلك عليه كما قال في موضع آخر مقيدا إلى يوم الوقت المعلوم وأراد به النفخة الأولى أو وقت يعلم الله انتهاء اجله فيه .

٣٧. فيها أن إبليس كان يدرك أن هنالك يوم يبعث الله فيها الخلائق {إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} ، ويعلم أن آدم سيكون له ذرية ونسل يعمّرون الأرض ثم يموتون .

٣٨. فيها ما يدل على أن حكمة اللّه اقتضت ابتلاء العباد واختبارهم بهذا العدو ، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن يطيعه ممن يطيع عدوه ، فقدر أن يكون من الطائفة التي تأخّرت أعمارها كثيراً.

٣٩. فيها أن التّأكيد بإنّ والإخبارُ بصيغة (من المنظرين) ما يدل أنّ إنظاره أمر قد قضاه الله وقدّره من قبلِ سؤاله ، أي تحقّق كونك من الفريق الذين أنظروا إلى يوم البعث ، أي أنّ الله خلق خلقاً وقدّر بقاءهم إلى يوم البعث ، فكشف لإبليس أنّه بعض من جملة المنظرين من قبل حدوث المعصية منه ، وإن الله ليس بمغيّر ما قدّره له ، فجواب الله تعالى لإبليس إخبار عن أمر تَحقّق ، وليس إجابة لطلب إبليس ، لأنّه أهون على الله من أن يجيب له طلَباً ، وهذه هي النّكتة في العدول عن أن يكون الجواب : أنْظرْتك أو أجبت لك ممّا يدلّ على تكرمة باستجابة طلبه ، ولكنّه أعلمه أنّ ما سأله أمر حَاصل فسؤاله تحصيل حاصل .

٤٠. فيها أن من سخر عمره في معصية الله تعالى فيه شبه بإبليس .

تخامساً : الأسئلة والإشكالات :

السؤال الأول : فإن قيل وهل يجوز أن يجيب الله دعوة الكافر حيث أجاب دعوة اللعين؟ قيل يجوز على طريق الاستدراج والمكر والإملاء لا على سبيل الكرامة ، وقيل: ليس في هذا اجابة بل هو إخبار بأمر قضاه .

السؤال الثاني: لماذا كرر هنا معنى الهبوط؟ كرّر معنى الهبوط بقوله (فاخرج) لأنّ الهبوط منها خروج ؛ ولكنه أخبر بصغاره وذلّته ، وهو أنه جزاء على تكبّره قوبل بالضدّ مما اتّصف به .

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٦ – ١٧) .

أولاً : المناسبة بين الآيات :

بين هنا لماذا سأل الانظار ، وكيف سوف يترصدهم .

ثانياً : معاني الكلمات :

- الإغواء: الإضلال والإبعاد ، وبمعنى : الإهلاك قال الله تعالى:{فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً} (مريم:٥٩) أي هلاكا. وقال ابن الأعرابي: يقال غوى الرجل يغوي غيا إذا فسد عليه أمره، أو فسد هو في نفسه. وهو أحد معاني قوله تعالى: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} (طه:١٢١) أي فسد عيشه في الجنة. ويقال: غوي الفصيل إذا لم يدر لبن أمه.
- لأقعدن لهم : أي ترصدا بهم قعد القطاع للسابلة .
- الصراط المستقيم : الطريق الذي يوصل سالكه لسعادة الدارين .

ثالثاً : المعنى الاجمالي :

لما بين تعالى له أنه من المنظرين أظهر حقده وحسده لبني آدم ، وبين أنه سوف يقعد لهم بكل طريق يوصلهم إلى الجنة ورضوان الله تعالى ، ويأتيهم من كل سبيل حتى لا يشكروا وينجوا ، فيهلكوا كما هلك عدو الله .

رابعاً : الفوائد والهدايات :

٤١. فيها ما يدل على مذهب أهل السنة أي أن الله تعالى أضله وخلق فيه الكفر ؛ ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى الله تعالى . وهو الحقيقة ، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له، صادر عن إرادته تعالى. وخالف الإمامية والقدرية وغيرهما شيخهم إبليس الذي طاوعوه في كل ما زينه لهم، ولم يطاوعوه في هذه المسألة ويقولون: أخطأ إبليس، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغواية إلى ربه، تعالى الله عن ذلك . فيقال لهم: وإبليس وإن كان أهلا للخطأ فما تصنعون في نبي مكرم معصوم، وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه: {وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ

أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}(هود:٣٤)، وقد روي أن طاوساً جاءه رجل في المسجد الحرام، وكان متهماً بالقدر وكان من الفقهاء الكبار؛ فجلس إليه فقال له طاووس : تقوم أو تقام ؟ فقيل لطاووس: تقول هذا لرجل فقيه! فقال: إبليس أفقه منه، يقول إبليس: رب بما أغويتني. ويقول هذا : أنا أغوي نفسي .

٤٢. فيها أن الشيطان بين أنه سوف يقعد لعباد الله قاطعاً لهم كل طريق يوصلهم إلى الجنة ، فيصدهم عن الحق ويصرفهم عنه ، ويزين لهم الباطل ويحثهم عليه ، حتى يهلكوا كما هلك ، أو يضلوا كما ضل. (لأقعدن لهم) أي أفعل في قطعهم عن الخير فعل المتمكن المقبل بكليته االمتأني الذي لا شغل له غير ما أقبل عليه ، كما يقعد قاطع الطريق للخطف .

٤٣. فيها أن الطريق الذي يوصل إلى الله واحد وهو صراطه المستقيم، وهو طريق الهدى والخير ولذا يقعد الشيطان فيه دون غيره، وفي اضافته إلى الله لأنه منه وحده.

٤٤. فيها أن العصمة من إغواء الشياطين يكون بلزوم الصراط المستقيم .

٤٥. فيها ما يدلّ على أنّ إبليس عَلِم أنّ الله خلق البشر للصّلاح والنّفعِ ، وأنّه أودع فيهم معرفة الكمال، وأعانهم على بلوغه بالإرشاد، فلذلك سُمِّيت أعمال الخير في حكاية كلام إبليس صراطاً مستقيماً، وأضافه إلى ضمير الجلالة ، لأنّ الله دعا إليه وأراد من النّاس سلوكه .

٤٦. فيها أن الله ابتلاء العباد بإبليس وجنوده ، ولكنه حذرهم منهم ، وكشف لهم كيدهم .

٤٧. فيها أن إبليس عدواً لبني آدم مبيناً ، لأنّه يطلب منهم ما لم يُخلقوا لأجله ، وما هو منافٍ للفطرة التي فطر الله عليها البشر، فالعداوة متأصّلة وجبليّة بين طبع

الشّيطان وفطرة الإنسان السّالمة من التّغيير، وذلك ما أفصح عنه الجَعل الإلهي المشار إليه بقوله : (بعضكم لبعض عدو) (البقرة: ٣٦) .

٤٨. فيها أن الشيطان يأتي للعبد من جميع الجهات والجوانب ، ليتمكن من إدراك بعض مقصوده فيهم، من أبواب الدنيا أو الدين ، ومن باب الحسنات وباب السيئات ، قال ابن عباس:"{ممن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} أشككهم فيها وأنه لا بعث {وَمِنْ خَلْفِهِمْ} الدّنيا أرغبهم فيها وأزيّنها لهم ، و{وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ} الحقّ، وعن {شَمَآئِلِهِمْ} الباطل، وعنه أيضاً: و{وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ} الحسنات، وعن {شَمَآئِلِهِمْ} السيئات . روى سفيان عن منصور عن الحكم بن عتيبة : {مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ} من دنياهم. {وَمِنْ خَلْفِهِمْ} من آخرتهم. {وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ} يعني حسناتهم. {وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ} يعني سيئاتهم. ويحتمل أن يقال من بين أيديهم من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز عنه ، ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرون وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم .

٤٩. فيها ما يدل على حرص إبليس وجنوده على الإغواء من خلال وعده بالقعود على الطريق ، والأخذ لهم من كلّ جهة حتّى يصادف الجهة التي يتمكّن فيها من أخذه ، فهو يأتيه من بين يديه ومِن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتّى تخور قوّة مدافعته .

٥٠. فيها أن من يكون على الباطل ، ويحرص على إضلال غيره فيه شبه بإبليس .

٥١. فيها خطر إبليس وذريته على بني آدم، والنجاة منهم بذكر الله تعالى وشكره.

٥٢. فيها أن الشكر الحقيقي لله يكمن في الإيمان بالله ، والطاعة له ولرسوله ﷺ.

٥٣. فيها أن هدف الشيطان صد الناس عن الشكر في التوحيد والانقياد {وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} أي موحدين طائعين مظهرين الشكر.

٥٤. فيها أن الشيطان يعلم ضعف بني آدم ، وأنه قد تغلب الغفلة على كثير منهم، فقال: { وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } .

٥٥. فيها أن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم ، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به، قال تعالى: { إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ } .

٥٦. فيها بيان لقلة الشاكرين من عباد الله تعالى .

٥٧. فيها أن الله تعالى إنما نبهنا على ما قال إبليس وعزم على فعله، لنأخذ منه حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا بالطريق التي يأتي منها، ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

٥٨. فيها (ولا تجد أكثرهم شاكرين) زيادة بيان لقوّة إضلاله بحيث لا يفلت من الوقوع في حبائله إلاّ القليل من النّاس وقد عَلِم ذلك بعلم الحدس وترتيب المسبّبات

٥٩. فيها تنبيه على أنّ المشركين بالله قد أتَوا أمراً شنيعاً إذ لم يشكروا نعمه الجمّة عليهم ، كما قال تعالى : (واشكروا لي ولا تكفرون)(البقرة: ١٥٢).

٦٠. فيها ما يدل على منزلة الشكر الذي يشمل الإيمان والطاعة وشكر المنعم على نعمه ، قال ابن عباس (شاكرين) موحدين ، وعنه وعن غيره مؤمنين لأنّ ابن آدم لا يشكر نعمة الله إلا بأن يؤمن ، وقال مقاتل شاكرين لنعمتك ، وقال الحسن : ثابتين على طاعتك ولا يشكرك إلا القليل منهم .

خامساً : الأسئلة والإشكالات :

السؤال الأول : فإن قيل كيف علم الخبيث أنه لا يجد أكثرهم شاكرين ؟ فيها قولان قيل : إما أن يكون قاله من باب الظن لقوله {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ} لما رأى فيهم مبدأ الشر متعددا ومبدأ الخير واحدا وقيل سمعه من الملائكة

أو على سبيل العلم ، وسبيل العلم إما رؤيته ذلك في اللوح المحفوظ ، أو استفادته من قوله {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} ، أو من الملائكة بإخبار الله لهم أو بقولهم {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا} .

السؤال الثاني : لماذا لم يقل ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ؟ قيل: لم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل منه ، ولم يقل من تحتهم لأن الإتيان منه يوحش الناس .

السؤال الثالث : فإن قيل: لما خص الأيدي والخلف بحرف الابتداء الذي هو أمكن في الإتيان ؟ قال : أبو حيان " إنما خصّ بين الأيدي والخلف بحرف الابتداء الذي هو أمكن في الإتيان لأنهما أغلب ما يجيء العدو وبسالته في مواجهة قرنه غير خائف منه والخلف من جهة غدر ومخاتلة وجهالة القرن بمن يغتاله ويتطلب غرّته وغفلته ، وخصّ الأيمان والشمائل الحرف الذي يدل على المجاوزة ؛ لأنهما ليستا بأغلب ما يأتي منهما العدوّ وإنما يتجاوز إتيانه إلى الجهة التي هي أغلب في ذلك ، وقدمت الأيمان على الشمائل لأنها الجهة التي هي القوية في ملاقاة العدوّ ، وبالأيمان البطش والدفع فالقرن الذي يأتي من جهتها أبسل وأشجع إذ جاء من الجهة التي هي أقوى في الدفع والشمائل جهة ليست في القوة والدفع كالأيمان " .

قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأعراف: ١٨) .

أولاً : المناسبة بين الآيات :

لما ذكر لنفسه ما يدل على القوة والاقتدار والكبر والافتخار ، خوطب بما يدل على أنه من أهل الذل والصغار ، لا يقدر على شيء إلا بتقدير العزيز الجبار ، مصرحاً بما أريد من الهبوط الذي ربما حمل على النزول من موضع من الجنة عال إلى مكانه منها أحط منه محقوراً مبعداً مطروداً .

ثانياً : معاني الكلمات :

- {مَذْءُوماً} أي مذموما ممقوتاً، من ذأمه بالهمز إذا ذمه. والذأم : العيب ، بتخفيف الميم . قال مجاهد : المذؤوم المنفي . والمعنيان متقاربان.
- المدحور : المبعد المطرود ، من دَحره إذا أبعده وأقصاه . وأصله الدفع .

ثالثاً : المعنى الاجمالي :

بين تعالى هنا الكيفية التي طرد به اللعين من الجنة {مذموماً مدحوراً} أي ممقوتاً مطروداً ، وبين مصيره ومصير من تبعه (لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين}.

رابعاً : الفوائد والهدايات :

٦١. فيها بيان قبح الصورة التي أخرج بها إبليس من الجنة ، فقد أخرج خروج صغار واحتقار، لا خروج إكرام ، مذمُوماً مطروداً مبعدا عن اللّه ورحمته وعن كل خير. فأومر أولاً بالهبوط مطلقاً ، وأمر بالخروج مخبراً أنه ذو صغار ، وأمر بالخروج مقيداً بالذمّ والطرد .

٦٢. فيها أن من تبع إبليس دحره الله كذلك في الدنيا ، وعذبه في الآخرة .

٦٣. فيها أن النار للعصاة من الجن والأنس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

٦٤. فيها أن جهنم اسم من أسماء دار الجزاء على الكفر والفسوق .

٦٥. فيها أن للشيطان اتباع في كل زمان ومكان (لمن تبعك منهم) .

٦٦. فيها أن من يخالف إبليس يكون مصيره الجنة دار النعيم .

٦٧. فيها أن العصيان والتكبر ينتهي بالعبد إلى سوء الحال .

الدرس الرابع من تفسير سورة الأعراف

قال تعالى : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩ – ٢١) .

أولاً : المناسبة بين الآيات :

لما بين تعالى طرده لإبليس واهانته ، بين إيواءه وإكرامه لآدم عليه السلام ، وفي ذلك مزيد غيظ وحرقة لحاسده اللعين . فالواو من قوله: (ويا آدم) عاطفة على جملة : (أخرج منها مذءوماً مدحوراً) ، فخاطب إبليس بأن يخرج منها مذءوماً مدحورا ، وخاطب آدم عليه السلام بما يدل على إكرامه:(ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة)، وهذا من عطف المتكلّم بعض كلامه على بعض إذا كان لبعض كلامه اتّصال وتناسب مع بعضه الآخر ، ولم يكن أحدُ الكلامين موجّهاً إلى الذي وجّه إليه الكلام الآخَر ، مع اتّحاد مقام الكلام ، كما يفعل المتكلّم مع متعدِّدين في مجلس واحد فيُقبل على كل مخاطب منهم بكلام يخصه .

وهذا الكلام تتمة السياق الوارد في النشأة الأولى للبشر وشياطين الجن ، أنزلت تمهيداً لهداية الناس بما يتلون من الآيات في وعظ بني آدم .

ثانياً : معاني الكلمات :

- وزوجك : هي حواء التي خلقها الله تعالى من ضلع آدم الأيسر.
- الجنة : دار السلام .
- في الظالمين : أي لأنفسهم .
- فوسوس: الوسوسة : الصوت الخفي ، والوسوسة حديث النفس ، والوسوسة : حديث ضار يلقيه الشيطان في صدر الإنسان ، ووسوسة الشيطان لابن آدم إلقاء

معانٍ فاسدة ضارة في صدره مزينة ليعتقدها أو يقول بها أو يعمل . والوسواس : الشيطان .

- ليبدي لهما: ليظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما ، واللام لام العاقبة .
- ما ووري : أي سُتر وغطي عنهما .
- من سواءتهما : من عوراتهما ، وسمي الفرج عورة لأن إظهاره يسوء صاحبه .
- وقاسمهما : حلف لكل واحد منهما ، يقال أقسم إقساماً أي : حلف .

ثالثاً : المعنى الاجمالي :

لما طرد الله إبليس مذءوماً مدحوراً أمر آدم وزجته حواء بسكنة الجنة ، وأباح لهما الأكل من كل ثمار الجنة وخيراتها حيث شاءا ، وأمرهما بعدم القرب من شجرة معينة والأكل منها ، وبين لهما أنهما إذا أكلا منها كانا من الظالمين المستوجبين للعقاب. ولكن إبليس لم يتركهما ، فوسوس لهما ، مزيناً لهما الأكل من الشجرة قائلاً لهما {ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين} {وقاسمهما} أي حلف لهما أنه ناصح لهما وليس بغاش لهما .

رابعاً : الفوائد والهدايات :

﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

١. فيها بيان منة الله على آدم وزوجته حواء حيث أمرهما بسكنا الجنة ، وأن يأكلا من حيث شاءا ، ويتمتعا فيها بما أرادا .
٢. فيها أن سعادة الرجل والمرأة يكون بالسكن والعيش في مكان واحد .
٣. فيها أن من إكرام الرجل إكرام أهله وعشرته .
٤. فيها أن الله أكرم آدم بخلق زوجته قبل أن يسكنه الجنة ، مما يشير إلى أن متعة المسكن لا تكتمل إلا بوجود زوجة يسكن إليها الرجل .

٥. فيها مزيد إهانة لإبليس ؛ لأن في توجيه الخطاب لآدم بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده زيادة إهانة ، لأنّ إعطاء النّعم لمرضي عليه في حين عقاب من استأهل العقاب زيادة حسرة على المعاقَب، وإظهاراً للتّفاوت بين مستحقّ الإنعام ومستحقّ العقوبة . وهذا مما يفيده موضع سياق الكلام زائد على ما في آية سورة البقرة ، وإن كانتا متماثلتين في اللّفظ ، ولكن هذا المعنى البديع استفيد من الموقع ، وهذا من بدائع إعجاز القرآن . والكلام هنا مساق إلى المشركين الذين اتخذوا الشّيطان أولياً من دون الله ، وأمّا ما في سورة البقرة فإنّه لموعظة بني إسرائيل .

٦. فيها أن الله حرم عليهما القرب من شجرة معينة بدون تعيين لعينها ، فليس في تعيينها فائدة لنا .

٧. فيها أن النهي والتحريم لآدم وحواء كان في غاية من الوضوح والتحذير في قوله (ولا تقربا هذه الشجرة) ، وهو أشدّ في التّحذير من أن يُنهى عن الأكل منها، لأنّ النّهي عن قربانها سد لذريعة الأكل منها ، وبدليل قوله: {فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}.

٨. فيها أن النهي عن القرب يفيد البعد عن موارد الشبهات التي تغريه للباطل .

٩. فيها أن النهي يقتضي التحريم إلا أن توجد قرينة تصرفه عنه إلى الكراهة .

١٠. فيها ما يفيد أن الحلال كثير ، والمحرم والممنوع قليل .

١١. فيها دقة تعبير القرآن حيث خصص الخطاب لآدم عليه السلام في بدايته " اسكن أنت وزوجك الجنة " للإشارة بأصالته في السكن وحواء تبع له ، والزوجة تابعة للرجل في السكنى ، وتوجيه الخطاب إليهما في الأكل للإشارة بتساويهما في مباشرة المأمور به ، فإن حواء مساوية له عليه السلام في حق الأكل ، بخلاف السكن فإنها تابعة له فيه .

١٢. فيها أن من ظلم العبد لنفسه ارتكاب المعاصي .

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾

١٣. فيها أن آدم وحواء لم يزالا ممتثلَيْن لأمر اللّه ، حتى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره ، فوسوس لهما وسوسة خدعهما بها، ومومه عليهما ، وقال:{مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ} أي: من جنس الملائكة {أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ} كما قال في الآية الأخرى: {هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى}.

١٤. فيها أن سلاح إبليس الذي يحارب به ابن آدم هو الوسوسة والتزيين لا غير ، وهي ما يجدونه في أنفسهم من الخواطر الرديئة التي تزين لهم ما يضرهم في أبدانهم وأرواحهم ومعاملاتهم .

١٥. فيها أن التبرج والسفور وكشف العورات غاية يسعى إليها الشيطان ، فقد علل هذه الوسوسة بأن غايتها أن يظهر لهما ما غطي وستر عنهما من سوآتهما .

١٦. فيها أن الستر الحسي والمعنوي من أعظم نعم الله على العبد .

١٧. فيها أنه على قدر الإيمان والطاعة يكون ستر الله على العبد .

١٨. فيها{إلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ} أن الملكية مرتبة عليا في القرب والإكرام تتطلع إليها البشرية ، وتسعى لتنال مرتبتها ، كما جاء في الحديث " الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة .

١٩. فيها بيان سوء ظن الشيطان بربه ، وسوء أدبه فبين لهما أنه ما نهاهما إلا كراهية أن يكونا ملكين ، أو يكونا من الباقين الذين لا يموتون .

٢٠. فيها بيان عظمة مداخل الشيطان على الانسان مع أنه يعرف أنه عدوه ، وهو الذي أبى السجود لآدم حسداً وتكبراً .

٢١. فيها أن الشيطان يأتي للإنسان من باب ضعفه ، من باب ما يشتهيه ، وما يخافه ويحذره ، ومن باب البحث عن الكمال والخلود كما في قوله تعالى : (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى).

٢٢. فيها بيان كيف تتغلب الشهوة مع وساوس الشيطان على العقل .

٢٣. فيها أن الشيطان يهدف من وراء المعصية إلى تجريد العبد من ستر الله عليه ، والوصول به إلى ما يسوءه .

٢٤. فيها بيان شدة مداخل الشيطان على الإنسان ، وأن التطلع لمعرفة المجهول في الغيب قد يوقع العبد في مصايد عدوه ، ولا يشترط في الاستجابة معرفة العلة .

٢٥. فيها أن التبرج وسيلة شيطانية ، ينال به من العبد مقصده .

٢٦. فيها قبح كشف العورة ، وأن كشفها من عظائم الأمور ، وأنه لم يزل مستهجناً في الطباع مستقبحاً في العقول ..

٢٧. فيها كشف لكيد الشيطان اللعين وأسلوبه العظيم في الإغواء ، وكيف يدل لما يريد ، ويسعى لتلويث الطائعين الطاهرين حتى نكون على حذر منه .

٢٨. فيها ما يدل على أن آدم عليه السلام لم يكن ناسيًا للنهي، وإلا لما ذكره بقوله: {ما نهاكما ربكما}، وقوله في سورة طه: {فنسي}، أي: نسي أنه عدو له، ولذلك ركن إلى نصيحته.

٢٩. فيها أن وساوس الشيطان تصل إلى النفس في أقوال وتحاور وقسم .

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾

٣٠. فيها أن إبليس هو أول من حلف بالله كاذباً .

٣١. فيها أن كل من يحلف بالله كاذبا فقدوته إبليس .

٣٢. فيها أن أهل الخداع قد يحلفون للمؤمن ليخدعوه .

٣٣. فيها أن العدو لا يمكن أن يكون أميناً في نصحه ، وإن ادعى ذلك .

٣٤. فيها بيان عداوة الشيطان للإنسان الأزلية المستمرة .

٣٥. فيها جواز الاقسام بالله تعالى، ولكن لا يحلف إلا صادقاً.

٣٦. فيها أنه ليس كل ناصح يريد الخير لناصحه ، وفرق بين نصح الحبيب والعدو .

٣٧. فيها تنبيه للاحتراز من الحالف، وأن الغالب أن كل حلاف كذاب ، فإنه لا يحلف إلا عند ظنه ان سامعه لا يصدقه، ولا يظن ذلك إلا من هو معتاد للكذب.

٣٨. فيها بيان لكيفية ترويج أهل الباطل لباطلهم ، وكيف يستدرج الشيطان الناس للوصول لما يريد .

خامساً : الأسئلة والإشكالات :

هل هذه الآية تدل على فضل الملائكة على الأنبياء؟ قيل: لا تدل على فضل ، وإنما كانت رغبتهما في أن يحصل لهما أيضا ما للملائكة من الكمالات الفطرية والاستغناء عن الاطعمة والاشربة ، وقيل: المراد التشبيهُ البليغ أي إلاّ أن تكونا في القرب والزلفى كالمِلكين ، وقد مثل لهما بما يعرفان من كمال الملائكة . وذلك لا يدل على فضلهم مطلقا .

قال تعالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٢ – ٢٣) .

أولاً : المناسبة بين الآيات :

هذه الآية تفريع على جملة : (فوسوس لهما الشّيطان)(الأعراف:٢٠) وما عطف عليها. وقد رتب الإخبار عن الأمور الحاصلة عند ذوق الشّجرة على حسب ترتيب حصولها في الوجود. فإنّهما بدت لهما سوءاتهما فطفقا يخصفان . وأعقب ذلك نداءُ الله إيّاهما .

ثانياً : معاني الكلمات :

- فدلاهما: أي دللهما من الدالة وهي الجرأة. أي جرأهما على المعصية، وقيل: حطهما من منزلة الطاعة إلى حال المعصية ، ولا يكون التدلي إلا من علو إلى أسفل ، والتدلية : إرسال الدلو في البئر .
- بغرور : أي بخداع ، والغرور: إظهار النصح مع إبطال الغش . وتغريره حتى أكلا من الشجرة، قال ابن عباس: غرهما باليمين. والغرور هو اعتقاد الشيء نافعاً بحسب ظاهر حاله ولا نفع فيه عند تجربته .
- والذّوق: إدراك طعم المأكول أو المشروب باللّسان، وهو يحصل عند ابتداء الأكل أو الشّرب.
- وطفقا : أي أخذا وأقبلا في الفعل .
- يخصفان: يقطعان ويشدان عليهما من ورق الجنة ليسترا عوراتهما. أي: يصلان بعضه ببعض ليستترا به ، والخصف حقيقته تقوية الطّبقة من النّعل بطبقة أخرى لتشتدّ .
- ظلمنا أنفسنا: أي بأكلهما من الشجرة .
- الخاسرين : الذين خسروا دخول الجنة والعيش فيها.

ثالثاً : المعنى الاجمالي :

بين الله تعالى هنا كيف غرر الشيطان بآدم وحواء وخدعهما حتى أكلا من الشجرة، فلما ذاقا من الشجرة انكشفت عوراتهما ، وظهر لهما ما يسوءهما ، فجعلا يشدان من ورق الجنة على أنفسهما ليسترا عوراتهما ، وعندئذ ناداهما ربهما سبحانه وتعالى مذكراً لهما ما نهاهما عنه من الأكل من الشجرة، وأنه حذرهما من عدوهما الشيطان ،

فعاتبهما على قبولهما نصحه وهو عدوهما البين العداء . فما كان منهما إلا إعلانهما التوبة وطلب المغفرة التي بدونها أكدا خسرانهما، فتابا فتاب الله تعالى عليهما .

رابعاً : الفوائد والهدايات :

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾

٣٩. فيها أن المؤمن طيب القلب؛ ولذا فهو يظن أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً ، فهو يغتر به، ويخدع له .

٤٠. فيها أن الشيطان يسعى لما به تدلي الخلق وعدم علوهم، وهي مستفادة من قوله تعالى "فدلاهما" ، ولا يكون التدلي إلا من علو إلى أسفل .

٤١. (فلما ذاقا) فيها دليل على أنهما لم يتمتعا في الأكل ، ولا متعة في حرام ، وأن المؤمن حي القلب لا يتوغل في الحرام فهما ذاقا ذوقاً فقط.

٤٢. فيها أن محرم كثيره فقليله حرام .

٤٣. فيها أن بُدُوّ سوآتهما حصل عند أوّل إدراك طعم الشّجرة ، دلالة على سرعة ترتّب الأمر المحذور عند أوّل المخالفة ، فزادت هذه الآية على آية البقرة .

٤٤. فيها أن المعصية تهتك ستر الله على عبده ، فلما عصيا ظهرت عورة كل منهما بعد ما كانت مستورة ، فصار للعري الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر . فالمعصية تبدي السوأة الباطنة والظاهرة ، ولهذا رأى النبي ﷺ في رؤياه الزناة والزواني عراة بادية سوآتهم ، وهكذا إذا رؤي الرجل أو المرأة في منامه مكشوف السوأة فإنه يدل على فساد في دينه .

٤٥. فيها أن الإنسان ليس معصوماً عن الخطأ .

٤٦. فيها أن الإنسان فضولي بطبعه .

٤٧. فيها (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أن فطرة الإنسان التي فطره الله عليها تدعوه لستر نقائصه ، وتحيُّلِه على تجنّب ما يكره هـ، وعلى تحسين حاله بحسب ما يُخيِّل إليه خيالُه . وهذا أوّل مظهر من مظاهر الحَضارة أنشأه الله في عقلي أصلَي البشر .

٤٨. فيها أن أمر الإسلام بستر العورات جاء متوافقاً مع الفطرة ، وما استقرّ في نفوس البشر .

٤٩. فيها أن الحياء من الفطرة التي فطر الله عليها الخلق ، وأن كشف العورة قبيح في النفس .

٥٠. فيها أن العقوبة قد تكون سريعة ومباشرة لأهل الخير والصلاح رحمة بهم .

٥١. فيها أن المعصية الواحدة قد تغير حياة العبد .

٥٢. فيها ما يدل على قول الشافعي وهو أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك ؛ لأنه سترة ظاهرة يمكنه التستر بها ؛ كما فعل آدم في الجنة . والله أعلم .

٥٣. فيها دليل على قبح كشف العورة ، وأن سترها واجب على الرجال والنساء على حد سواء ؛ ولذلك ابتدرا إلى سترها .

٥٤. فيها أن الأصل الذي فطر الله عليه الخلق ستر العورة وأن التعري عادة شيطانية.

٥٥. وفيها دليل على أن كشف العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع .

٥٦. فيها إثبات الكلام من الله تعالى لآدم عليه السلام، بدون واسطة مَلك مرسل ، مثلِ الكلام الذي كلّم الله به موسى ، وهذا واقع قبل الهبوط إلى الأرض ، فلا

ينافي ما ورد من أن موسى هو أوّل نبي كلّمه الله تعالى بلا واسطة ، ويجوز أن يكون نداءُ آدم بواسطة أحد الملائكة .

٥٧. فيها أن التوبيخ في وقت الشعور بالذنب له أثر عظيم في التوبة ؛ ولذا تأخّر نداء الربّ إياهما إلى أن بدت لهما سوآتهما ، وتحايلا لستر عوراتهما ليكون للتّوبيخ وقْعٌ مكين من نفوسهما ، حين يقع بعد أن تظهر لهما مفاسد عصيانهما ، فيعلما أنّ الخير في طاعة الله ، وأنّ في عصيانه ضراً .

٥٨. فيها أن الله ما ترك لعباده حجة حيث فصل لهم ما حرمه عليهما ، وكشف لهم مكر عدوهم .

٥٩. فيها أن من اغتر بقول عدوه يستحق العتاب والتوبيخ ، فالأول عتاب على مخالفة النهي ، والثاني توبيخ على الاغترار بقول العدو .

٦٠. فيها أن الشيطان عدو ظاهر العداوة بيِّن ، ولكن الناس ينسون هذه العداوة ، وينخدعون بوسوسته .

٦١. فيها بيان لسعة حلم الله ورحمته بعباده .

٦٢. فيها أن الإنسان كثير النسيان بطبعه .

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

٦٣. فيها أن الله مَنَّ على آدم وحواء بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من اللّه مغفرته فقالا {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }.

٦٤. فيها أن تذكر ربوبية الله وإحسانه دافع قوي للتوبة (قالا) أي آدم وحواء – عليهما أزكى التحية والإكرام (ربنا) اي أيها المحسن إلينا والمنعم علينا .

٦٥. فيها بيان لسرعة رجوع أهل الإيمان من إغواء الشيطان ومسه .

٦٦. فيها أن الاعتراف بالذنب أول باب للإنابة .

٦٧. فيها أن التوبة ندم يظهر في كلمات ينطق به العبد .

٦٨. فيها أن الذنوب ظلم للنفس وضرر عليها ، وتضييع لحقها في الكمال البشري .

٦٩. فيها أن فلاح العبد يكون بالمغفرة التي هي محو أثر الذنب وعقوبته، والرحمة المتمثلة في قبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا . فغفر اللّه لهما ذلك {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى }.

٧٠. فيها بيان عظم هذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ، وهي أعظم كلمات يقولها كل تائب ومنيب ، لأن الله علمها لآدم عليه السلام .

٧١. فيها أن الذي يعترف بذنبه ويسأل الله المغفرة بعد الخطيئة فيه شبه بآدم عليه السلام ، والذي يصر على التمادي في طغيانه ففيه شبه بإبليس .

٧٢. فيها أن شرط التوبة الاعتراف بالذنب وذلك بالاستغفار أي طلب المغفرة .

٧٣. فيها بيان لما حظي به آدم من خلال هذه الكلمات ، وقيل : سعد آدم بخمسة أشياء : اعترف بالمخالفة ، وندم عليها ، ولام نفسه ، وسارع إلى التوبة ، ولم يقنط من الرحمة ، وشقي إبليس بخمسة أشياء : لم يقرّ بالذنب ، ولم يندم ، ولم يسلم نفسه بل أضاف إلى ربّه الغواية ، وقنط من الرحمة .

٧٤. فيها أن من عادة الأكابر استعظام الصغيرة، وأن عدم المجادلة مع المبادرة إلى الإقرار بالذنب من فعال الأشراف لكونه من معالي الأخلاق، وأنه لا مثيل له في اقتضاء العفو وإزالة الكدر، وأن الجدال من فعال الأرذال، ومن مساوئ الأخلاق وموجبات الغضب المقتضي للطرد .

الدرس الخامس من تفسير سورة الأعراف

قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٤ — ٢٥) .

أولاً : المناسبة بين الآيات :

لما تشوفت النفوس إلى جواب العلي الكبير سبحانه أجيبت بقوله{قال اهبطوا} أي إلى دار المجاهدة حال كونكم{بعضكم لبعض عدو}،وطوَى القرآن هنا ذكر التّوبة على آدم : لأنّ المقصود من القصّة في هذه السّورة التّذكير بعداوة الشّيطان وتحذير النّاس من اتّباع وسوسته ، وإظهار ما يعقبه اتّباعه من الخسران والفساد .

ثانياً : معاني الكلمات :

- مُسْتَقَرٌّ : قرار ، و قيل :أعمار مضروبة إلى آجال معلومة .
- مَتَاعٌ: تمتعٌ وانتفاع . والمتاع والتّمتّع: نيل الملذّات والمرغوبات غير الدّائمة، ويطلق المتاع على ما يُتمتّع به وينتفع به من الأشياء .
- تحيون : أي مدة العمر المقدر لكل منكم .
- تموتون : أي حين انتهاء الأجل .
- تخرجون :أي إلى البعث والجزاء بعد الموت حينما يريد اللّه .

ثالثاً : المعنى الإجمالي :

أمر اللّه سبحانه وتعالى آدم وحواء وإبليس أن يهبوا إلى الأرض أعداء لبعضهما، آدم وحواء وذريتهما أعداء لإبليس وذريته ، وبيَّن لهم أن استقرارهم في هذه الدنيا ومتاعهم مضروب إلى آجال معلومة، وأنهم فيها يحيون مدة العمر المقدر لهم ، وفيها يموتون حين انتهاء الأجل، ومنها يخرجون إلى البعث والجزاء بعد الموت حينما يريد اللّه فيخرجون من قبورهم .

رابعاً : الفوائد والهدايات :

١. فيها بيان شؤم المعصية حيث كانت سبباً لطرد إبليس من رحمة الله تعالى ، وإخراج آدم وحواء من الجنة .

٢. فيها أن العداوة بين الشياطين والإنس متقررة على مدى التاريخ بدون هوادة ولا تسامح ، والمراد بالبعض : البعض المخالف في الجنس فأحد البعضين هو آدم وزوجه، والبعض الآخر هو إبليس ، ولما كانت هذه العداوة تكوينيّة بين أصلي الجنسين كانت موروثة في نسليهما .

٣. فيها تذكير لبني آدم بعداوة الشّيطان المستقرة لهم ، ليكونوا حذرين من كل الوساوس التي تأتيهم من قبل الشياطين .

٤. فيها أن الله هيأ الأرض بمقومات لتكون مستقر للإنسان ومتاع له، وأنه لا حياة مستقرة للإنسان في الدنيا إلا على وجه الأرض .

٥. فيها توقيت بقاء الإنسان في الدنيا لوقت محدد ، بحسب الأجل من الميلاد إلى الوفاة .

٦. فيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، فهي ليست مسكنا حقيقيا ، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

٧. فيها أن حياة الإنسان وموته وبعثه مرتبط بالأرض .

٨. فيها بيان أن الحياة الأرضية تغاير حياة الجنة ، فحياتها حياة سماوية غير أرضية.

٩. فيها التذكير بالثواب والعقاب المترتب على هذا الإخراج والبعث .

١٠. فيها دليل على أن الشيطان لا يبقى إلى يوم القيامة .

خامساً : الأسئلة والإشكالات :

السؤال: خاطب الله تعالى إبليس بالهبوط من قبل فما معنى هذه الإعادة؟

قيل : إن هذا الثاني خطاب لآدم وحواء والحية، قاله أبو صالح، وإبليس خارج من الخطاب . وقيل : الخطاب للكل ؛ لأنهم وإن اقترفوا في وقت الإخراج والإنزال لكن لما اجتمعوا في الإنزال جمع بينهم في الخطاب، والأول خاص لإبليس والخطاب الثاني عام للكل .

قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٦) .

أولاً : المناسبة بين الآيات :

بعد أن أمر اللّه تعالى آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض ، وجعلها لهم مستقر ومتاع ، وكان الشيطان سبباً في نزع لباسهما، وانكشاف سوآتهما، وهبوطهما إلى الأرض، ذكر هنا منَّته عليهم أن أنزل لهم لباساً يواري سَوْآتهم ، والرّياش الذي يمكن به استقرارهم في الأرض واستمتاعهم بما حولهم ؛ وذلك يقتضي شكر اللّه على نعمه العظيمة وعبادته بحق . كما فيه تنبيه قوي لفتنة الشيطان الذي يسعى لخزي بني آدم وفضيحتهم وإبعادهم من كل خير؛ ولهذا جاء بعده التحذير من كيد الشّيطان وفتنته بقوله : (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان) ، وفي ضمن ذلك تذكير للعباد بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى .

ثانياً : معاني الكلمات :

- قَدْ أَنْزَلْنَا: أي خلقناه لكم .
- لباسًا: كل ما يلبس في السلم والحرب .
- يُوَارِي : يستر .

- سَوْآتِكُمْ : عوراتكم .
- وَرِيشًا: لباس الزينة الذي يتجمل به ، استعير من ريش الطائر؛ لأنه لباسه وزينته أي أنزلنا عليكم لباسين لباساً يواري سوءاتكم ولباساً يزيّنكم . وقيل : هو الخصب ورفاهية العيش. والذي عليه أكثر أهل اللغة أن الريش ما ستر من لباس أو معيشة.
- وَلِباسُ التَّقْوى : أي لباس الورع والخشية من اللّه ، وقيل: الإيمان والطاعة .

ثالثاً : المعنى الإجمالي :

نادى الله تعالى بني آدم مذكراً وممتناً عليهم بما أنزله عليهم من اللباس الذي جعله لستر العورات، والتجمل به، ثم ذكر عباده بأعظم لباسٍ يسترهم في الدنيا والآخرة وهو لباس التَّقْوَى . ثم بين لهم أن ذَلِكَ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى الدالة على قدرته وحكمته ورحمته ، وَدَلَائِلِ إِحْسَانِهِ إِلَى بَنِي آدَمَ ، وَكَثْرَةِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُذكرهم بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ شُكْرِهَا المتمثلة في الإيمان والطاعة .

رابعاً : الفوائد والهدايات :

١. فيها إشارة إلى حسن خطاب القرآن ودقة مراعاتها لخبايا النفوس ، فلما ذكرهم بقصة أبيهم آدم وما لقيه من وسوسة الشّيطان وكيده ، ناداهم بعنوان الأبوة ، ليقبلوا على الخطاب بتشوق ، وليكون أكثر وعياً وتحرزاً ، وذلك أنّ شأن الذرّية أن تثأر لآبائها ، وتعادي عدوّهم ، وتحترس من الوقوع في شَرَكه .
٢. فيها تشريف للإنسان وترفق واستعطاف به من خلال قوله تعالى : (يابني آدم) الذي خلقته بيدي ، واسكنته جنتي ، وأسجدت له ملائكة ، ثم أنزلته إلى دار محبتي ، إرادة الإعلاء لكم إلى الذروة من عبادتي .
٣. فيها دليل على وجوب ستر العورة ، لأن الله أنزل اللباس لتحقيق هذه الغاية ، ولا خلاف بين العلماء في وجوب سترها عن أعين الناس .

٤. فيها أن إنزال اللباس الذي يستر العورات من النعم التي تستوجب الشكر لله رب العالمين ، وهو من فيض رحمته وبره بعباده .

٥. فيها أن الله تعالى يسخِّر الأسباب التي بها تتحقق مصالح العباد ، حيث أنزل المطر الذي ينبت القطن والكتان ، ويُقيم البهائم التي منها الأصواف والأوبار والشعر الذي به يتحقق ما امتن به من إنزال الثياب .

٦. فيها بيان أن اللباس من أصل الفطرة الإنسانية، والفطرة أول أصول الإسلام ، وأنه مما كرم الله به النوع الإنساني منذ ظهوره في الأرض .

٧. فيها أن مقصد اللباس وأشرفه ما كان به سترة السوءة ، وهنالك أنواع أخرى تأتي بعده في الأهمية مثل العمامة والشماخ ، والبردة ، والقباء ونحوها .

٨. فيها امتنان ثاني على عباده بأن جعل من الثياب ما يتجمل به الإنسان مع الستر من خلال قوله تعالى: (وَرِيشاً) . أي: ولباساً يزيّنكم، لأنّ الزينة غرض صحيح كما قال تعالى: (لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً) ، (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ).

٩. فيها أن التجمل بالثياب بدون إسراف مندوب في الشريعة ؛ وامتنانه تعالى على بني آدم بلباس الزينة يدل على استحبابها ، والله جميل يحب الجمال ، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

١٠. فيها أن التقوى خير لباس يستتر به المرء ، وهو متمثل في الإيمان بالله وتقواه ، من خلال فعل أوامره وترك نواهيه. قال ابن عباس في لباس التقوى: العمل الصالح، وقال أيضاً: العفة، وقال عثمان بن عفّان وابن عباس أيضاً: السّمت الحسن في الوجه، وقال معبد الجهني: الحياء، وقال الحسن: الورع والسّمت الحسن، وقال عروة ابن الزبير: خشية الله، وقال ابن جريج: الإيمان، وقيل: ما يظهر من السكينة والإخبات، وقال يحيى بن يحيى: الخشوع، والأحسن أن يجعل عامّاً، فكلّ ما يحصل

به الاتقاء المشروع فهو من لباس التقوى ، وهذا كله داخل في معنى الآية وهو من باب التفسير بالنوع .

١١. فيها أن اللباس المعنوي وهو لباس التقوى المتمثل في الإيمان والتقوى خير لباس وأجمل زينة من اللباس الحسي ، فإن لباس التقوى يستمر مع العبد ، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح، وأما اللباس الظاهر فغايته أن يستر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات، أو يكون جمالاً للإنسان وليس وراء ذلك منه نفع، وأيضًا بتقدير عدم هذا اللباس تنكشف العورة الظاهرة التي لا يضر كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى، فإنها تنكشف عورته الباطنة، ويناله الخزي والفضيحة ، قال بعضهم :

إذا المرء لم يلبس لباسًا من التقى * تقلب عريانًا وإن كان كاسيا

١٢. فيها الحث على التزام اللباس الظاهري الذي يستر العورات ، واللباس الباطني الذي به يكون النجاة والستر في الآخرة .

١٣. فيها أن لباس التقوى وزينتها الذي أساسه العلم بالحق والعمل به خير من المال والرياش والجمال الظاهر فالله سبحانه خلق عباده وجمل ظواهرهم بأحسن تقويم وجمل بواطنهم بهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

١٤. فيها التّحريض على تقوى الله، فإنّها خير للنّاس من منافع الزّينة. فلو تجمل الإنسان بأحسن الملابس وهو غير متقي كان كله سوءات ، ولو كان متقياً وليس عليه إلا خرقة تواري عورته كان في غاية الجمال والستر والكمال .

١٥. فيها أن ستر العورات باب عظيم من أبواب التقوى .

١٦. فيها أن إنزال اللباس من آيات الله العظيمة الدالة عليه وعلى فضله ورحمته بعباده .

١٧. فيها أن لباس التقوى علامة وأمارة من الله أنه قد رضي عن العبد ورحمه لعلهم يذكرون هذه النعم فيشكرون الله عليها . وذلك بإرجاع الإشارة إلى أقرب مذكور .

١٨. فيها أن التذكير بالنعم ربما تكون سبباً لكف العبد عن الحرام وفعل القبيح .

١٩. فيها أن سعادة العبد وفوزه أن يجمع الله له بين الزينتين : زينة البدن باللباس ، وزينة القلب بالتقوى، زينة الظاهر والباطن، وكمال الظاهر والباطن .

٢٠. فيها أنه إذا كان المراد بالإنزال ما ذكر أن الله تعالى خلق لبني آدم مادته من القطن والصوف والوبر وريش الطير والحرير وغيرها ، وعلمهم بما خلق لهم من الغرائز والقوى والأعضاء وسائل صنع اللباس منها كالزراعة والغزل والنسج والخياطة فإن مننه تعالى بهذه الصناعات على أهل هذا العصر أضعاف مننه على المتقدمين من شعوب بني آدم ، فيجب أن يكون شكرهم له أعظم .

خامساً : الأسئلة والإشكالات :

السؤال : فإن قال قائل كيف قال أنزلنا ولم ينزل اللباس من السماء ؟

قيل: قد أنزل المطر وكل نبات من المطر فكأنه أنزله. وقيل: معناه أن كل ما في الأرض فهو من بركات السماء ، فيكون كالمنزل من السماء وعلى هذا معنى قوله تعالى (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) وإنما يستخرج من الأرض لكن نسبه إلى السماء كذا هذا .

قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٧) .

أولاً : المناسبة بين الآيات :

لما كان المقصود من ذكر القصص لاسيما قصص الأنبياء الاعتبار بها، وكان التذكير بما وقع بين آدم عليه السلام وبين الشيطان من شديد العدواة مقتضياً للتحذير من الشيطان اتبعها بأن حذر أولاد آدم من قبول وسوسة الشيطان وفتنته؛ التي كانت

سبباً لخروج أبيهم من الجنة ، ونزع ثيابهما ، وكشف سوآتهما ، التي إمتن عليهم بسترها في الآية السابقة ، مبيناً لهم خطره حيث يردهم من الجهة الخفية ، ويتسلط على من لم يتخذ الرحمن ولياً .

ثانياً : معاني الكلمات :

- لا يَفْتِنَنَّكُمُ :لا يضلنكم ، ويصدنكم .
- سَوْآتِهِمَا : عوراتهما .
- قَبِيلُهُ : جنوده وجماعته .
- أَوْلِيَاءَ : أعوانا وقرناء .

ثالثاً : المعنى الإجمالي :

وجه الله تعالى نداء ثاني لبني آدم يحذرهم فيه من إغواء الشيطان لهم ، مذكراً إياهم بما صنع مع أبويهما من إخراجهما من الجنة ، بعد نزعه لباسهما عنهما ، فانكشفت سوءاتهما ، الأمر الذي سبب إخراجهما من دار السلام ، منبهاً لهم على خطورة العدو من حيث أنه يراهم هو وجنوده من حيث لا يرونهم ، ثم أخبر تعالى أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .

رابعاً : الفوائد والهدايات :

١. فيها التحذير من الشيطان وفتنته والإصغاء إليه والاستجابة لأمره ، لأنه يصرف العباد عن دين الله الحق . وفتنة الشّيطان حصول آثار وسوسته ، وهذا من مبالغة النّهي ، ومنه قول العرب لاَ أعْرِفَنَّك تفعل كذا : أي لا تَفْعَلَن فأعْرِفَ فعلك ، لا أرَيَنَّكَ هنا: أي لا تحضرن هنا فأراك ، فالمعنى لا تطيعوا الشّيطان في فتْنِهِ فيفتنَكم .
٢. فيها أن الشيطان كان هو السبب في إخراج آدم وحواء من الجنة في أسوأ حالة ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ﴾ ، والمقصود من هذه الحالة تفظيع هيئة

الإخراج بكونها حاصلة في حال انكشاف سَوْآتهما؛ لأنّ انكشاف السوءة من أعظم الفظائع في متعارف النّاس . والتّعبير عمّا مضى بالفعل المضارع لاستحضار الصّورة العجيبة من تمكّنه من أن يتركهما عريانين .

٣. فيها إشارة إلى أنّ الشّيطان يهتم بكشف سوأة ابن آدم ؛ لأنّه يسرّه أن يراه في حالة سوء وفظاعة .

٤. فيها التحذير من زوال النعمة باتباع خطوات الشيطان ، كما نزل بآدم وحواء .

٥. فيها أن العاقل من اتعظ بغيره ، واستفاد من العبر التي ذكرها الله تعالى في كتابه .

٦. فيها أن إطلاق الأب هنا على الجد لأنه أب أعلى ، كما في قول النبي ﷺ : (أنا ابن عبد المطلب) .

٧. فيها أن إضافة نزع اللباس إلى الشيطان وإن لم يتول ذلك ؛ لأنه كان بسبب منه فأسند إليه ، وكذلك لما كان نزع لباسهما بوسوسة الشيطان وغروره أسند اليه.

٨. فيها بيان أن اللباس الذي نزعه الشيطان عن آدم وحواء: هو ثياب الجنة .

٩. فيها أن انكشاف العورة أول سوء اصاب الإنسان من الشيطان.

١٠. فيها خطورة الشيطان؛ لأنه يأتي الإنسان ويبصره من الجهة التي لا يبصره منها. قال مالك بن دينار: إن عدواً (يراك) ولا تراه لشديد (المؤنة) إلاّ مَنْ عصم الله .

١١. فيها تصوير قوي لشر الشياطين وخطورة كيدهم ؛ لأنّ شأن الحَذِرِ أن يَرصد الشّيء المخوف بنظره ليحترس منه إذا رأى بَوادره ، فأخبر الله النّاس بأنّ الشّياطين تَرى البشر، وأنّ البشر لا يرونها، إظهاراً للتّفاوت بين جانب كيدهم وجانب حذر النّاس منهم، فإنّ جانب كيدهم قويّ متمكّن وجانب حذر النّاس منهم ضعيف، لأنّهم يأتون المكيد من حيث لا يدري، وفي هذا المعنى تقريب حال عداوةِ الشّياطين

بما يعهده العرب من شدّة أخذِ العدوّ عدوّه على غرّة من المأخوذ ، تقول العرب : أتَاهم العَدوّ وهم غَارّون .

١٢. فيها أنّ الشيطان له أنصار ينصرونه على حين غفلة من النّاس .

١٣. فيها أن الشّياطين محجوبون عن أبصار البشر ، فرؤية ذوات الشّياطين منتفية لا محالة ، وقد يخول الله رؤية الشّياطين أو الجنّ متشكّلة في أشكال الجسمانيات ، ولا يكون ذلك إلاّ على تشكل الشّيطان أو الجنّ في صورة غير صورته الحقيقيّة، بتسخير الله لتتمكّن منه الرّؤية البشريّة ، فالمرئيّ في الحقيقة الشّكل الذي ماهيةُ الشّيطان من ورائه ، وذلك بمنزلة رؤية مكانٍ يُعلم أنّ فيه شيطاناً ، وطريق العلم بذلك هو الخبر الصّادق ، فلولا الخبر لما عُلم ذلك .

١٤. فيها أن عدم رؤية الشيء لا ينفي وجوده ، والشياطين أجسام لطيفة معلوم من الدين وجودها ، ولا يخفى على عاقل أثرها . كما أنّ الملائكة أيضاً معلوم وجودهم من هذه الشريعة ولا يستنكر وجود أجسام لطيفة جدّاً لا نراها نحن ، ألا ترى أنّ الهواء جسم لطيف لا ندركه نحن ، وقد قام البرهان العقلي القاطع على وجوده ، وقد صحّ تصورهم في الأجسام الكثيفة ، ورؤية بني آدم لهم في تلك الأجسام كالشيطان الذي رآه أبو هريرة حين جعل يحفظ تمر الصدقة ، والعفريت الذي رآه الرسول ﷺ وقال فيه : (لولا دعوة أخي سليمان لربطته إلى سارية من سواري المسجد) .

١٥. فيها أن العدو إذا أتى من حيث لا يرى كان أشد وأخوف ووجوب العناية باتقائه أعظم .

١٦. فيها أن للشيطان نسل وله جنود يعملون معه في إضلال بني آدم .

١٧. فيها ما يدل على رؤية الشيطان للإنسان ، والإنس لا يرونهم إلا في حالات نادرة كما في أسير أبي هريرة . قال ابن عباس جعلهم الله يجرون من بني آدم مجرى الدم ، وصدور بني آدم مساكن لهم فهم يرون بني آدم وبنو آدم لا يرونهم

١٨. فيها أن الشيطان ولي كل من لم يتول الله ورسوله ، فإن القلوب الرافضة لنور الحق لا بد أن يعشعش فيها ظلمات الباطل .

١٩. فيها أن الشياطين تكون دائماً قريبة من القلوب الكافرة الرافضة لنور الإيمان .

٢٠. فيها أن بالإيمان والتقوى تحصل ولاية الرب للعبد قال تعالى :{ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون} .

٢١. فيها أن الله يسلط الشياطين على الذين لا يؤمنون ، فيحوضنهم على الباطل ، ويزيدونهم في غيّهم ، فيتابعونهم على ذلك فصاروا أولياءهم .

خامساً : الأسئلة والإشكالات:

السؤال : ما اللباس الذي نزع من آدم وحواء ؟

اختلفوا في اللباس الذي نزع منهما فقال بعضهم:أنه النور،وبعضهم التقى ، وبعضهم : أنه اللباس الذي هو ثياب الجنة وهذا القول اقرب ؛ لأن اطلاق اللباس يقتضيه.

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٨ – ٣٠) .

أولاً : المناسبة بين الآيات :

لما جعل امارتهم في ولاية الشيطان عدم الإيمان ؛ عطف على ذلك امارة أخرى بين من خلالها كيف تكون مجادلتهم إذا فعلوا خصلة ذميمة ، ونهوا عنها احتجوا على

فعلهم بأنهم وجدوا آباءهم يفعلونها والله أمرهم بها ، وفي ذلك كشف لباطلهم في ضمن معاذيرهم الفاسدة .

فيها بيان صورة من صور فتنة الشيطان ، ونزعه بغرور لثيابهم مرة أخرى .

ثانياً : معاني الكلمات :

- فاحشه: الفاحشة ما تبالغ في فحشه ، وغلبت الفاحشة في الأفعال الشّديدة القبح وهي التي تنفر منها الفطرة السّليمة ، أو ينشأ عنها ضرّ وفساد بحيث يأباها أهل العقول الرّاجحة ، وينكرها أولو الأحلام ، ويستحيي فاعلها من النّاس ، ويتستر من فعلها مثل البغاء والزّنى والوأد والسّرقة ، ثمّ تنهى عنها الشّرائع الحقّة
- بالقسط : أي : العدل والاستقامة . قال ابن عباس: القسط : لا إله إلاّ الله أي: بأن يعبد الله وحده .
- أقيموا وجوهكم : أي أخلصوا العبادة لله واستقبلوا بيته .
- كما بدأكم تعودون: كما بدأ خلقكم أول مرة يعيدكم بعد الموت أحياء .
- أولياء من دون الله : يوالونهم محبة ونصرة وطاعة، من غير الله تعالى.

ثالثاً : المعنى الإجمالي :

بين تعالى أن المشركين إذا فعلوا خصلة ذميمة قبيحة شديدة القبح ونهوا عنها احتجوا على فعلهم بأنهم وجدوا آباءهم يفعلونها، وأن الله تعالى أمرهم بها ، بين تعالى لرسوله أن يرد عليهم بأنه لا يأمر بالفواحش ، وأن قولهم هذا قول على الله بغير علم .

ثم أمر الله رسوله أن يبين لهم أن أمر الله قائم على العدل ، وهو الإيمان بالله ورسوله وطاعتهما ، وليس هو الشرك بالله وفعل الفواحش ، والكذب على الله تعالى بأنه حلل كذا وهو لم يحلل، وحرم كذا وهو لم يحرم، وأمر بإخلاص العبادة له، واستقبال بيته الحرام، وأمر أن يدعوه وحده ولا يدعو معه أحداً ، مذكراً لهم بالدار

الآخرة والحياة الثانية، فإن من آمن بالحياة بعد الموت والجزاء على كسبه خيراً أو شراً أمكنه أن يستقيم على العدل والخير طوال الحياة .

ثم بين تعالى أنه وفق فريقاً من عباده للهداية ، ويسر لهم أسبابها ، وصرف عنهم موانعها ، وقضى بحكمته البالغة لآخرين بالضلالة ، وذلك الخذلان بسبب رغبتهم عن الهداية وموالاتهم لأهل الغواية ؛ لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، فضلوا ضلالاً بعيداً حتى ظنوا أنهم مهتدون ؛ لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقا والحق باطلا .

رابعاً : الفوائد والهدايات :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

١. فيها أن فعل الفواحش والقول على الله بغير علم هو فعل الذي لا يؤمنون .
٢. فيها أن فعل الآباء ليس ديناً يحتج به ، بل هو دائما حجة المنحرفين ، لأن الحجة تكون بالوحي وليس بالتقليد لآبائهم بدون هدى من الله تعالى .
٣. فيها أعظم زاجر وأبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المخالفة للحق ، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق ، وهذه الخصلة هي التي بقى بها اليهودي على اليهودية والنصراني على النصرانية والمبتدع على بدعته ، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم في اليهودية والنصرانية أو البدعية وأحسنوا الظن بهم ، بأن ما هم عليه هو الحق الذى أمر الله به ، ولا ينظروا لأنفسهم ، ولا طلبوا الحق كما يجب ، وبحثوا عن دين الله كما ينبغي .
٤. فيها أن تقليد الآباء من أسباب ضلال الأمم ، وبه صرفهم الشيطان عن الحق .

٥. فيها قبح الفواحش وحرمتها ، فالفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، تستفحشها وتنكرها .

٦. فيها أن الله تعالى منزه بكماله المطلق الذي لا شائبة للنقص فيه، فإنه تعالى تنزه أن يأمر بالفحشاء ، وإنما الذي يأمر بها هو الشيطان ، الذي هو مجمع النقائص كما قال تعالى في آية أخرى: {الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء}(البقرة: ٢٦٨) .

٧. فيها تنزه الله تعالى عن الرضا بالفواحش فضلاً عن الأمر بها ؛ بل أوامره كلها حسنة في العقول مقبولة في الفطر ، فلا يأمر بما هو نقص لم يرضه العقلاء وأنكروه ، فكون الفعل فاحشة كاف في الدّلالة على أنّ الله لا يأمر به ، لأنّ الله له الكمال الأعلى ، فلا يليق بجلاله وكماله أن يأمر بمثل تلك الرّذائل .

٨. فيها أن كل من تكلم في الدين ينبغي أن يتكلم بعلم وحق ، ومن شأن أهل الباطل القول على الله بغير علم ، يقولون على الله ما لا يعلمون أنه شرعه لعباده .

٩. فيها أن القول على الله بغير علم من أعظم أسباب الانحراف والضلال .

١٠. فيها دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة، حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول ، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص .

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾

١١. فيها أن أوامر الله تعالى كلها قائمة على العدل الذي يعني الوسط من كل أمر بدون إفراط ولا تفريط ، بعيدة كل البعد عن الجور .

١٢. فيها ما يحث على التحلي بالعدل في القول وفي الحكم ، لأنه هو الذي أمر الله تعالى به وحث عليه .

١٣. فيها أن أساس العدل الذي أمر الله به توحيده ، قال ابن عباس القسط هنا : لا إله إلا الله ، لأن أسباب الخير كلها تنشأ عنها .

١٤. فيها أن دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر السليمة ، وأنه قد بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال ، وأن ما كان كذلك فحقيق بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم سواه .

١٥. فيها الحث على التوجه بالعبادات إلى الله تعالى وعدم قصد غيره .

١٦. فيها الحث على إقامة الوجوه قبل القبلة عند الصلاة ، والتوجه حيث كنا في الصلاة إلى الكعبة ، قاله: مجاهد والسدي وابن زيد .

١٧. فيها أنه إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي . قاله ابن عباس والضحاك واختاره ابن قتيبة .

١٨. فيها الحث على تصحيح النية وحضور القلب ، وصرف الشواغل سواء كانت العبادة طوافا أو صلاة أو ذكرا أو فكرا .

١٩. فيها الحث على دعائه وحده، مخلصين له الدين، بدون شائبة من الشرك الأكبر وهو التوجه إلى غيره من عباده المكرمين كالملائكة والرسل والصالحين ، ولا إلى ما وضع للتذكير بهم من الأصنام والقبور وغيرها ، ولا من الشرك الأصغر وهو الرياء وحب اطلاع الناس على عبادتكم والثناء عليكم بها والتنويه بذكركم فيها .

٢٠. فيها أن هذه الآية تضمنت قواعد الدين علما وعملا واعتقادا فأمر سبحانه فيها بالقسط الذي هو حقيقة شرعه ودينه وهو يتضمن التوحيد فإنه أعدل العدل، والعدل في معاملة الخلق ، والعدل في العبادة وهو الاقتصاد في السنة ويتضمن الأمر بالإقبال على الله ، وإقامة عبوديته في ثبوته ، ويتضمن الإخلاص له وهو عبوديته وحده لا شريك له .

٢١. فيها الاحتجاج على النشأة الثانية بالأولى وعلى المعاد بالمبدأ فجاء باحتجاج في غاية الاختصار والبيان، فقال (كما بدأكم تعودون) ، كقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ} وقوله: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ} الآية وقوله: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى } .

٢٢. فيها أن الله كما بدأ الخلق بقدرته كذلك يعيدهم ، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس وبه قال الحسن وابن زيد والزجاج وقال هذا الكلام متصل بقوله (فيها تحيون وفيها تموتون).

٢٣. فيها تذكير بالبعث والجزاء على الأعمال ودعوة إلى الإيمان به في أثر بيان أصل الدين ومناط الأمر فيه والنهي الوارد في سياق أصل تكوين البشر ، واستعدادهم للإيمان والكفر والخير والشر ، وما للشيطان في ذلك من إغواء الكافرين الذين يتولونه ، وعدم سلطانه على المؤمنين الذين يتولون الله ورسوله .

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

٢٤. فيها دليل على أن الهداية بفضل اللّه ومَنِّه، وأن الضلالة بخذلانه للعبد، إذا تولى – بجهله وظلمه – الشيطانَ، وتسبب لنفسه بالضلال .

٢٥. فيها دليل على القدر في قوله تعالى:(فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة).

٢٦. فيها أن الخلق يعودون إليه يوم القيامة حالة كونكم فريقين فريقا هداهم في الدنيا ببعثة الرسل فاهتدوا بإيمانهم به وإقامة وجوههم له وحده في العبادة ودعائه مخلصين له الدين لا يشركون به أحدا ولا شيئا، وفريقا حق عليهم الضلالة لاتباعهم إغواء الشيطان ، وإعراضهم عن طاعة الرحمن وكل فريق يموت على ما عاش عليه ،

ويبعث على ما مات عليه ، ومعنى حقت عليهم الضلالة ثبتت بثبوت أسبابها الكسبية ، لا أنها جعلت غريزة لهم فكانوا مجبورين عليها .

٢٧. فيها أن من حسب أنه مهتدٍ وهو ضالٌّ، لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانه من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى ، فالكافر المخطئ والمعاند سواء في استحقاق الذم .

٢٨. فيها دليل على خطأ قول من زعم أنّ الله تعالى لا يعذّب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلاّ أن يأتيها على علم منه بموضع الصّواب ، ووجه الدلالة قوله (وَيَحْسَبُونَ) والمحسبة الظنّ لا العلم .

٢٩. فيها أن هذه الآية تضمنت الإيمان بالقدر والشرع، والمبدأ والمعاد، والأمر بالعدل والإخلاص، ثم ختم الآية بذكر حال من لم يصدق هذا الخبر، ويحسب أنه على هدى والله أعلم.

٣٠. فيها أن أكثر من ضل من البشر في الاعتقادات والأعمال يحسبون أنهم مهتدون ، وأقل الكفار الجاحدون للحق كبرا وعنادا كأعداء الرسل في عصورهم، وحاسديهم على ما آتاهم الله من فضله فكرمهم به عليهم ، كما حسد إبليس آدم واستكبر عليه ، ومنهم فرعون والملأ من أشراف قومه الذين قال تعالى فيهم :{ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا } (النمل ١٤).